

رياض القاضي

مولانا السيد

حليف الشيطان

رواية

في ذلك الشرق المتعب .. لا يخاف المرأة من شيء .. بقدر ما يخاف من الإنس

مجموعة النيل العربية

مَوْلَانَا السَّيِّد
حَلِيفُ الشَّيْطَانِ^{رواية}

رِيَاضُ الْقَاضِي

مَوْلَانَا السَّيِّدُ
حَلِيفُ الشَّيْطَانِ
رواية

مَجْمُوعَةُ النَّبِيلِ الْعَرَبِيَّةِ

القاضي، رياض.
مولانا السيد . حليف الشيطان: رواية/ رياض القاضي
. ط١، القاهرة: مجموعة النيل العربية، 2017.
192 ص، 20 مم.
نمسك-0-377-213-9
1-القصص العربية
1- العنوان
813

تنبيه ١:
لقد تم بذل أقصى جهد ممكن لضمان
احتراء هذه الرواية على مادة أدبية متقدمة ترتكز
بโดยق المقارن العربي وتحفظ له اللغة الفنية مع مراعاة
عدم المساس بمقاييس العربية الأصلية وأعرافها وتقاليدها
العرفية. ومع ذلك، لا يتحمل الناشر:
”مجموعة النيل العربية“ أية مسؤولية
قانونية فيما يخص غيري هذه الرواية أو عدم
مسؤولية أو خسائر أو مطالبات متعلقة بالنتائج المرتبة
على قراءة أو استخدام هذه الرواية.

تنبيه ٢:
إن مادة هذه الرواية والأفكار والرؤى المفروضة بها تغرس
فقط عن رؤية مؤلفها وآراؤه المكسي والأدبي،
ولا تغرس بالضرورة عن رؤية الناشر ولو عوجه.
كذلك حفظها المدنية والجنسانية.

عنوان الرواية: **مولانا السيد . حليف الشيطان**

تألّف : رياض القاضي

رقم الإيداع : 25500

الت رقم الدولي : 978-977-213-0

الطبعة : الأولى

سنة النشر : 2017

الناشر : **مجموعة النيل العربية**

المؤلف : حس. ب: 4051 وهي السابعة

مدينة نصر ١١٧٢٧ القاهرة - ج.م.ع

النомер : 00202/26717135 - 26717134

الفاكس : 00202/26717135

البريد الإلكتروني :
info@arabnilegroup.com
sales@arabnilegroup.com
arab_nile_group@hotmail.com

الموقع الإلكتروني : www.arabnilegroup.com

حقوق النشر :

حضرى القبض والنشر بكلفة صورة محفوظة للملف، ولا يجوز نشر أي
جزء من هذه الرواية أو اختران مادتها بطريقة الاسترجاع أو نقلها على أي
نحو أو بآية طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو
بالتسجيل أو علاوه ذلك إلا بعد الرجوع للمؤلف والم الحصول على موافقة
كتابية منه. ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للمسائلة القانونية مع حفظ

اِحْدَادٌ

إِلَى رَجُلِ الْمَرَاحلِ الصَّعِبةِ

الْمَلِكُ فَيَصِلُّ إِلَّا وَلَ

مقدمة لا بد منها

تشعّبت الأمور في العراق حتى ظنّ أهل الباطل بأنهم على حق... ساد رجال الدين حتى طغوا فأرجعوا البلاد والعباد إلى عصر ما قبل النهضة... بينما دول الغرب تسابقت فيما مضى من القرون في التخلص من الكنيسة وفصل الدين عن السياسة.. ونقل بلادهم إلى مستوى أعلى وانعززوا في متأهات التعليم متاجهelin كل أنواع الطائفية، وحققوا نجاحات في بناء الصرح الحضارية التي هشمت أحلام رجال الدين.. أما في العراق فقد حدث العكس.. بدلًا من أن ينهض البلد بالعلم، طوّرته الأيدي في براثن التفاهات والجهل... وأصبح بلدًا يحتضن مهرّجين على أنهم ساسة، وما هم بساسة بل وصمة عار على رجال السياسة.

في مقدمة هذه الرواية فضلت أن أستشهد بآيات قرآنية تؤكد تعامل البشر مع الشياطين وأنها حقيقة لا بد من الاعتراف بها.. وهناك رجال دين يلجمون إلى مثل هذه الأمور ويستغلون ضعفاء العقل والقلب.. وما أكثرهم الآن في شرقنا الكسول.

وتعمدت أيضًا أن أستشهد في مقدمة الرواية بعض من أقوال الملك فيصل الأول عن طبيعة الشعب الذي حكمه.. وعن عقول لم تقبل أي نوع من الحكم سواء القساة أو الطيبون.. فهان عليهم أن يفتکوا وينکلوا برموزهم الوطنية التي تمثلت بالعائلة الحاكمة من ملوك وأمراء، وبلا رحمة.

اليوم نرى حال دولة بأكملها لا يرتاح لها سوى جاهل ولا يُسر بها إلا الخائن.. في كل دقيقة تولد بدعة، وفي كل لحظة تُسحق روح بريئة.. حتى فاقت الغطرسة كل شيء وانقلب في بلادنا كل شيء بالعكس.. فالشريف صار خائناً والخائن ائمنوه على وطن ضائع.

سَيِّد سَامِي

شخصية حقيقة ولكن بدون قرين.. شخصية تحكي أحداثها في البصرة «الهارثة».. حيث تهافت الناس عليه من كل حدب وصوب، مجده وعظموه حتى باتت صوره أغلى من رغيف الخبز.. وصارت شهرته أعظم من شهرة الحاكم نفسه.

أشارت شخصيته إعجاب أهل المدينة حتى طُبعت صوره في المَهَفَّات. وباتت مبيعات صوره تفوق صور الإمام «علي» - عليه السلام - التي غرقت بها الأسواق والأرصفة.. وبات الناس يقصدونه في نيل الرزق أو لكي يُغدق عليهم بعض من الحِرَز ليقيهم من شر الإنس وفاجعات القدر.

وعندما أحضره رجال الأمن مكبلاً بالغطرة، أمام مدير أمن البصرة.. سأله الأخير:

- كيف قَصْدَكَ الناس ومن الذي صنعتك.. وكيف بربت فجأة في وقت قياسي قصير؟

فأجاب مبني الرأس:

- سيدى، الناس هم من رفعوا شأنى.. صنعت يوماً حرزًا باطنه قصاصة ورقية مكتوب عليها بعض ما أملأه عقلى من كلمات ارتجلالية خطرت في بالي لحظتها، مُعلقاً بقطعة قماش أخضر.. أعطيتها لامرأة اشتد عليها المرض فجأة.. الصدفة وحدها لعبت دوراً في تعديل الحرز وعندما شُفيت من مرضها، انتشر صيتها في أرجاء المعمورة بفضلها.. حتى توافد علىَّ كبار الرجال زحفاً على الركب وأغدقوني بمال واهدايا.

أحاول أن أشير في روایتي بأن المغزى الحقيقى هو حوار مع من يرفضون ما جاء به نص القرآن بأن المنجمين كذبوا ولو صدقوا.. وأن الدين هو رحمة لا نقمة وأن نشر المذهب بالسلاح.. كما نراه اليوم ليس وارداً في قانون الله.. بل علينا أن نقبل الآخرين كما هم وليس كما يأمر «الولي الفقيه» تحت غطاء اللسان المسئول وكلمات رنانة يصدقها السذاج ويعظمها الفاسقون.. فالعقل هدية الله إلينا يخاطبنا به، فلمَ لا نخاطب الآخرين بالعقل بدل العصبية؟!.

وأخيراً أتمنى ألا تؤخذ روایتي على محمل طائفى.. وإنما أرجو مراجعة أنفسنا بجدية وعزيم، والإقبال على الأمور بعزم وروية، قبل أن نُهلك أنفسنا بأنفسنا والله أعلم ما في الصدور.

المؤلف

﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَمَن يَكُنْ أَشَيْطَنُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾

(سورة النساء - الآية: 38)

﴿ إِنَّا زَيَّنَاهُ الْمَاءَ الْدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ٧ وَحَفَظَا مِنْ كُلِّ شَيْطَنٍ مَارِدٍ
يَسْعَوْنَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيَقْدُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ٨ دُجُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبْ
إِلَّا مَنْ حَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَنْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ٩ ﴾

(سورة الصافات - الآية: 6 - 10)

وهذه الآيات تتبع المؤمنين: يخرجون الشياطين باسمي، ويتكلمون بأمسنة جديدة، يحملون حيّاتٍ، وإن شربوا شيئاً ميتاً لا يضرّهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرئون.

(إنجيل مرقس: 16 - 17 - 18)

«إن البلاد العراقية من جملة البلدان التي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية ذلك هو الوحدة الفكرية والملية والدينية، فهي وبالحالة هذه بمعشرة القوى، منقسمة على بعضها، يحتاج ساستها أن يكونوا حكماء مدبرين، وفي عين الوقت أقوياء مادة ومعنى، غير مخلوين لحسيات أو أغراض شخصية، أو طائفية، أو متطرفة، يداومون على سياسة العدل والموازنة، والقوة معًا، على جانب كبير من الاحترام لتقاليد الأهالي، لا ينقادون إلى تأثيرات رجعية، أو إلى أفكار متطرفة تستوجب رد الفعل».

«الحكومة أضعف من الشعب ولو كانت البلاد خالية من السلاح لها الأمور لكنه يوجد في المملكة 15 ألف بندقية حكومية ولا يوجد لدى الحكومة نصف هذا العدد من البنادق في أي بلد من بلاد الله يمكن أن تكون حالة حكومة وشعب كهذه»

«لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد بل توجد تكتلات بشرية خالية من أية فكرة وطنية متشعبة ب التقليد وأباطيل دينية لا تجمع بينهم جامحة ساعون السوء ميليون للفوضى مستعدون دائمًا للانقضاض على أية حكومة كانت.

علينا أن لا ندع مجالاً للأحزاب المصطنعة والصحف والأشخاص ليقوموا بانتقادات غير معقولة وتضليل الشعب وعلينا أن نعطيهم مجالاً للنقد النزيه المعقول ضمن الأدب»

من مذكرات

المالك فيصل الأول

في ذلك الشرق المتعب..

لا يخاف المرءُ من شيءٍ.. بقدر ما يخاف من الإنسان..

يراوده إحساس بأنّ الأرواح تحب النار.. حينما طغى لون الأدهم
كالعقيق الأسود وبات يكتسح جدران المغاربة..

ظلال تتواثب وتترافق على الجدار من ورائه.. تارة بأنفاس كالخناجر
طويلة مقوسة، وساعة تمثل في قط أسود تتوهج عيناهَا في ضوء الشموع.

قرية صفراء..

صحراء.. لم تصلها ذرة علم.

يهم الناس على وجوههم.. باسطين آماهم بين أيدي الدجلة.

بسطاء.. يغلب الجهل على تلك العقول الساذجة، يخلون من فقه لعلوم الحياة. ويلجؤون إلى البدع في نجواهم وتقربيهم إلى الخالق.

الخرافات لدفهم شيء مقدس وخط أحمر لا جدال فيه.. ومن يتزرم بها سيدخل الجنّة.. كما تقول اعتقاداتهم، بل وحتى الملكان ناكر ونكير لا وجود لها، وسيزور الميت أولياء معينون في قبره ويدخل الجنّة بفضلهم.

البدع، الخرافات، الغلو.. ومن ثم الضحك عليهم من قبل من زوروا نسل الأنبياء ونسبوا أنفسهم إليهم لكي يسهل عليهم سرقة السُّدُّج باسم الدين.

في تلك القرية النائية، تتواجد السبع، سباع آدميّة تلتّهم السذاج.

سباع تحالفت مع الشيطان، تعتاش على عقولهم البسيطة، تآخوا مع الشيطان في تحالف طويل الأمد.

عَزَّ الْهَوَاءُ فِدَا الْفَضَاءُ خَانِقًا كَالْحَوَارِيِّ الضَّيْقَةِ .. يَلْقَطُ الْأَنْفَاسَ التَّقَاطُّا
تَتَوَزَّعُ عَيْنَاهُ بَيْنَ الْخَلَاءِ وَالشَّرُودِ .. الْفَضَاءُ خَانِقٌ كَأَنَّهُ لَيْسَ خَانِقًا . تَسْرِي
فِي بَدْنِهِ رِجْفَةً .

صَاحِبُ الْقَدْمَيْنِ الْمَفْلَطِحَتَيْنِ، الْمَشْقَقَتَيْنِ، كَطْمَمِيْ جَافِ، يَسْرُعُ فِي
خَطْوَاتِهِ فِي الْخَلَاءِ، وَسَطِ الظَّلَامِ، قَاصِدًا أَعْلَى التَّلِّ، فِي الْوَادِي الرَّمْلِيِّ،
يَحْمَلُ بَقْجَةً، مَثْقَلَةً بِالْزَّادِ، اقْتَرَبَ بِحَذْرٍ مِنْ مَدْخَلِ الْغَارِ، كَانَ الْخُوفُ
السَّارِيُّ فِي أَوْصَالِهِ يَعْتَصِرُ .. لَا شَمْسٌ لَتَبَدَّلُ مَخَاوِفُ الظَّلَامِ .. يَرْتَعِشُ
قَلِيلًا .. وَيَكَادُ يَصْرُخُ مِنْ طَيْفِ يَطَالِعِهِ فِي الظَّلَامِ .. هُلْ هُوَ مُجَرَّدُ تَخْيِلاتٍ
تَوَلَّدُ مِنْ شَدَّةِ الْخُوفِ؟ أَمْ فَعَلًا شَبَحٌ يَطَالِعُهُ وَسِينَقْضُ عَلَيْهِ فِي أَيَّةِ لَحْةٍ،
يَحْاولُ أَنْ يَخْفِي ذَلِكَ الْأَرْتَاعَشَ، فَوْضُعُ الْبَقْجَةِ بِسُرْعَةِ أَمَامِ الْمَدْخَلِ،
لِيَطْلُقَ سَاقِيهِ لِلرِّيحِ .

كَأَنَّهُ يَخَافُ مِنْ أَنْ يَبْتَلِعَهُ حَيْوَانٌ كَاسِرٌ، أَوْ..؟ جَنِّ .

- 4 -

خلق الله عز وجل (سوميا) أبا الجن قبل أن يخلق -آدم- بحوالي ألفي عام.

وقال الله لـ سوميا: تمنّ.

فقال سوميا: أتمنى أن نرى، ولا نُرَى، وأن نغيب في الشرى، وأن يصير
كهلنا شاباً.

ولبّى الله عز وجل لـ سوميا -أمنيته، وأسكنه الأرض له ما يشاء فيها.

وكان الجنّ أول من عبد الله على الأرض.

في دائرة من الشموع.. التي تحيط به.. جالساً.. مغمض العينين يتمتم بكلمات غير مفهومة.. مبهمة، لا يفهمها إلا الجن.. لأنها لغتهم.. ابتدعواها، بعدها حرّفوا كلام الله.

رضي الرجل على نفسه أن يتحدى خالقه الآن، بداية العصبية بدأت.. سيتحدى قدره.. ويتحقق لنفسه الجاه والمكانة التي يطمح إليها.. لا يهم كيف.. المهم أن يكون سيداً بين قومه وانتهى.

- 6 -

لا صوت إلا صرير الرياح المُرعبة، يجلس كشبح مريض.. أنهكه التعب.. إلا أنه ما يزال يتحامل على نفسه لإنتهاء ما جاءه من أجله.. عيناه جاحظتان ليس خوفاً، بل تلهفاً للقاء الجن - القرین - حنجرته تضطرب، وخفقان قلبه بادِ رغم الظلام الباهت، لا تكاد أصوات الشموع تكفي لإِنارة مساحة المغارة.

يتقطر من أنفه الطويل المعقوف العرق، عيناه عكرتان، كلما سمع فحيحاً صادراً من جوف الحيطان، يفتح عينيه وكأنه يتضرع ظهور الشبح المرتقب بفارغ الصبر.

وبعد انتظار طویل ..

أتاه ما كان يتضرع ..

منخرأه يتحرّك من الاختلال، العرق أغرق وجهه.

همس بصوت خافت:

- هل ستظهر؟

- لا جواب.

- هل سأملك طويلاً؟

تردد صدى طويلاً في أرجاء المغارة الصغيرة.. هب هواء خفيف لفتح وجهه المنهك.. أحس بشيء ما سيحدث..
أصبح بين اليقين والشك.

حدّثه صوتٌ من بين الفراغ:

- تباً.. عرق الخبث.. يمتلئ به جسده كله.. إن صمدت أمام وجهي
فستنصح في امتلاك قرين.
أغمض عينيه براحة.. والعرق يزداد غزاره.
- رأيتك عطنة أيها السيد.

ضحك الصوت بجلجة.. فانتقض الرجل من مكانه.. فاتحًا عينيه
مذهولاً، لم ينبس بكلمة..
ينتظر التالي.

اهتزت أرجاء المكان.. وكان الجلجلة تنبئ بظهور شيء مهول.
أسرعت أضواء الشموع الضعيفة بالانطفاء، بالتالي، وكانتها تلقت
أمرًا بذلك.. حتى ساد الظلام والسكون للحظة قصيرة.

سؤاله الصوت:

- أعرفك جيداً.. وأعرف أسرار النفس الخبيثة التي بداخلك.

- أنا عبدكم.

- وماذا تريد؟

- أنتم تعرفون ما أريد.

- نريد أن نسمع منك.

- التقرب منكم يا سادي.

- نحن كائنات نستوطن عالم الخفاء.. الممتد من كل مكان من حولنا،
لسنا مرئيين بعيونكم العادية، لكن هناك من يمكنهم رؤيتنا.

- الدرويش أخبرني بكل شيء.

- وبماذا جازيناه؟

- دخلتم في بطن زوجته الحامل.. فانتفخت حتى انفجر بطنها.

- وماذا بعد؟

- دخلتم في رأس أطفاله فانفجرت الرؤوس الواحد تلو الآخر.. وألصقتم ظهر الدرويش في سقف البيت، وغرزتم رمحًا في بطنه ولم تستطع إزالتة فاضطررنا إلى قطع الجسد نصفين حتى يزال الدرويش من السقف.

- ولماذا؟

سكت الرجل ولم ينبس بكلمة.

- حسناً سأجييك رغم معرفتك الجواب.. أراد أن يتوب وقال لنا إنه عاد لرشده، فلقي جراءه.

ساد صمت ثقيل لا يُسمع سوى حفييف ريح مخيفة ثم ما لبث أن عادت الشموع إلى الحياة وكأنها أضيئت بأمر.

حانت منه نظرة إلى الشموع، ثم ضحك الصوت وقال:

- المرحلة الأولى انتهت.. سنشهد لك قريباً، وإذا ارتعش جسدك من الخوف فستعيش بقية عمرك مجنوناً وعليك غضبنا ولعنة مِنَّا لن تتلهي.. عليك أن تحافظ على قرينك يا سيد سامي، والتزلف إلينا في كل شيء.

- أمركم مطاع.

تخلل الهواء صدره فزاده نشوة واسترخاء.. رغم أن الحر يجثم على رئتيه ببطة وتأصلُ رائحته الأنوف الناتجة من التعرق الغزير.

بين الساعة الحادية عشر ليلًا والواحدة صباحًا، يظهرون فقط لأشخاص معينين.. عدا ليلة الجمعة، التي هي لحظات ابتهاجهم، يتسع الجن في عالمنا حتى السبت، يحلّون في عالم مرئي متقمصين شكل الحيوانات أو حشرات، كأن يتقمص أحدهم حمارًا، أو كلبًا، صر صورًا أو فأرًا. وهناك دولة عربية تعامل مع الأسحار، ولا يلحقون الأذى ليلًا بحيوان أو حشرة، بسبب إيمانهم المطلق بالسحر والجن.

سكنهم القاذورات والمراحيض والأماكن الموحشة والأدوية والقبور ومواضع القتل والمزابل والديورة. وتدخل في الأصنام وتحاطبهم. وينهون الناس من التغوط في الفزع، وهو البياض المتخلل بين الزرع، لأنّه مسكن الجن.. وأيضًا الجحر ولهذا يُكره البول فيه.

* * * * *

تسعة أشياء طلبها إبليس من الله لما نزل إلى الأرض مطرودًا، مذمومًا مدحورًا:

قال: يا رب، أنزلتني وجعلتني رجيمًا، فاجعل لي بيته.

قال الله - عزّ وجل - : الحَمَّام.

قال: فاجعل لي مجلساً.

قال - عزّ وجل - : الأسواق ومجتمع الطرق.

قال: واجعل لي طعاماً.

قال - عزّ وجل - : ما لم يذكر اسم الله عليه.

قال: فاجعل لي شراباً.

قال - عزّ وجل - : كلّ مسکرٍ.

قال: فاجعل لي مؤذناً.

قال - عزّ وجل - : المزامير وآلات اللهو.

قال: فاجعل لي قرآنًا.

قال - عزّ وجل - : الشّعر.

قال: فاجعل لي خطأً.

قال - عزّ وجل - : الوشم.

قال: فاجعل لي حديثاً

قال - عزّ وجل - : الكذب.

قال: فاجعل لي مصائد.

قال - عزّ وجل - : النساء.

تسعة أشياء طلبها إبليس لتكون له عوناً على أداء مهمته التي طلب
الإنتظار إليها.. إلى يوم البعث.

وفي لحظة كان ينتظرها طويلاً.. صبر أكثر من شهر بلا حمّام ولا زاد يكفيه.. ما يجلبه له زوج ابنته من أكل قد لا يكفيه نصف نهار.. إذْ كان السيد وبعد متصف الليل يتسلل إلى مدخل الغار لكي يسحب صرّة الأكل بجهوده ويعود إلى حلقة الدائرة المكونة من الشموع.. اشتاق للخارج وشم بعض الهواء النقي.. ضاقت نفسه ولكن جاء لشيءٍ ويجب أن يناله.

ارتّج المكان قليلاً، ثم أعقبه ارتّجاج أقوى، انطفأت الشموع بفعل الارتّجاجات، بدأ التراب ينهال شيئاً فشيئاً من سقف المغارة ثم توقف الارتّجاج.. ليسود السكون من جديد، كان يتبع تعليمات الكتاب الذي بين يديه، بأن يستمر في القراءة الطلاسم منها حدث، حتى يظهر له مخلوق مخيف كالمارد، وعليه أن يستمر ويستمر بالقراءة وبلا توقف أو خوف، وسيحاول الزائر-القرين -أن يخيفه بتغيير ملامحه المرعبة، فإن خاف السيد فأمره مقضي بالجحون أو الموت، وإن صمد تآخى مع الجن وفاز فوزاً لا آخر له في الدنيا. أخيلة الأشباح ملأة المكان، بعد أن عادت شعلتها الحافظة إلى الإضاءة، تذرع المغارة بحركات انسانية في الهواء.. تراقص ظلالها مع أنوار الشموع براحة غير عادية.

ثم اجتمعت الظلال في ركن واحد.. وبدأت تتقاذف كسهم ناري أمامه، ثم تبُعَت حال ارتطامها بالتراب، بعتها الظلال الأخرى.. ما أن ترطم بأرض المغارة تختفي ككابوس أسود، وكأنها لم تكن.

«احذر الخوف، سيظهر قرينه قريباً».

لا تنـسـ الوصـاياـ.. ما أن تـبـدـيـ خـوفـكـ أـمـامـهـ، سـيمـسـخـكـ إـلـىـ كـائـنـ مـجنـونـ. ومع قراءة حروف الطلاسم، يتـصـاعـدـ حـفـيفـ الأـصـواتـ المـخـيفـةـ وـتـشـتـدـ حـدـتهاـ. وـكـانـهـ تـعـبـرـ عن غضـبـ عـارـمـ يـمـوجـ فـيـ صـدـرـهـ.. غـاضـبـةـ منـ ثـبـاتـ هـذـاـ الرـجـلـ بلاـ خـوفـ ولاـ رـهـبةـ. عـلـيـهـمـ أـنـ يـخـيـفـوهـ قـبـلـ أـنـ يـمـلـكـ قـرـيـنـاـ.. فـأـسـوـأـ شـيـءـ أـنـ يـسـخـرـ جـنـيـ فيـ خـدـمـةـ هـذـاـ الإـنـسـيـ».

فـجـأـةـ خـيـمـ الـظـلـامـ وـالـسـكـونـ.

ثـمـ أـعـقـبـ ذـلـكـ سـهـمـ نـارـيـ آخرـ، اـرـطـمـ عـلـىـ الـأـرـضـ.. ليـتـحـولـ إـلـىـ كـتـلـةـ لـهـبـ أـنـارـتـ المـكـانـ، ثـمـ مـاـلـبـثـ أـنـ تـكـوـنـ شـكـلـ مـخـيفـ جـلـسـ أـمـامـهـ، سـاكـنـاـ. يـغـيرـ شـكـلـهـ مـنـ قـبـحـ إـلـىـ الـأـقـبحـ.

فتحـ الرـجـلـ عـيـنـيهـ.. اـتـسـعـتـ عـيـنـاهـ جـاحـظـةـ لـلـحـظـةـ ثـمـ تـمـالـكـ نـفـسـهـ مـنـ غـبـطةـ التـيـجـةـ.. لـقـدـ صـمـدـ أـمـامـ الـكـائـنـ وـهـذـهـ آـيـاتـ اـمـتـلـاـكـ الـقـرـيـنـ بـلـ رـيبـ.

مـخلـوقـ يـشـبـهـ الرـجـلـ الـأـرـسـتـقـاطـيـ، بـمـلـامـحـ مـرـعـبةـ، العـيـونـ عـبـارـةـ عنـ محـاجـرـ فـارـغـةـ، قـبـحـ عـجـيبـ يـطـغـيـ عـلـىـ الـمـلـامـحـ، يـنـظـرـ إـلـىـ الرـجـلـ نـظـرةـ شـيـطـانـيـةـ مـخـيفـةـ، الـآنـ بـدـأـتـ مـلـامـحـ الـمـخـلـوقـ تـنـجـلـيـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ وـأـصـبـحـ وـاـضـحـاـ لـلـرـجـلـ بـعـدـ أـنـ كـانـ يـتـلـاشـيـ قـلـيـلاـ وـيـظـهـرـ قـلـيـلاـ.

استـقـرـ عـلـىـ هـيـئـتـهـ.

ضحكة مستهترة ثم سكوت مخيف..

- لقد نجحت أنها الإنسي.

- وإنني لعلى عهدي باقٍ.

- تخدمني وأخدمك.

- أنا حاضر.

- ابنته.

اهتاجت روحه، تصاعدت أنفاسه قائلاً:

- ما لها؟

- لا تتردد.. أنت من اخترت عالمنا، لا نحن.. أنت من أعلن استعداده
لعمل الرذيلة ولسنا نحن.

- ماذا تقصد؟

لقدرأيتني، وليس لك أن ترفض أي فعل نطلبه لأننا لن نرفض أي شيء
تريد.. ت يريد جاهًا وأناسًا يُعظّمونك ويقدسونك.. لكل شيء مقابل.

أو ما برأسه يسأل التوضيح.. قائلاً:

- أريد أن أعرف ماذا تقصد؟

- ابنته لا تحمل طفلاً من زوجها.. وبعلها متلهف لطفل يحمل اسمه،
ستكون أنت من يزرع الطفل في رحم أمه.

جحظت عيناه، بل أرادتا أن تخرجَا من محجرِيهما.

- ماذا؟

- متى يخرج من الغار؟
- اليوم مساءً.
- هل تعتقد سينجح.
- أستطيع الجزم بنعم.. فوالدك غني عن التعريف.
- عندما أعطاه الساحر المغربي الطلاسم.. كان أبي توافقاً جدّاً لكي يجعل له قريناً من العالم الآخر، ولكنني قلقة عليه من الغرور فأنت تعرفه.
- اتركيه، فصيّته أذيع بـشكل كبير في القرية، والناس عظّموه أكثر من الإمام علي نفسه... صوره تباع أكثر من صور الأولياء في كل مكان من البصرة.
- يا لهذه القرية الغبية.
- اتركيمهم فلو لاهم لما عشنا... واحذر أن تنفوهي بهذا الكلام أمام والدك.
- فعلاً أغبياء.

قالت مستنكرة.

قالت معقبة بعينين مشاغبتين وأنفها المحبب، شفتاها كما يشتهي زوجها، ورثت عن أمها الجمال الفتان، وطول القامة، لون بشرتها السمراء وشعرها البندقي، قروية تمتلك حُسناً خرافياً عيناها واسعتان كبحيرة عسل، أنفها به طول محبب، وشفتها وحشيتان طالما دمرت بحسنتها جيشاً من الرجال.. كلماتها سريعة تنطقها كأنها تتكلفأ شهية، نضرة.

- سارية، سأذهب إلى الغار وأجلبه اليوم، وأنت حضري لنا العشاء.

- توخَّ الحذر وأنت ذاهب إلى الخلاء يا حمدان، تلقاءه الآن جائعاً..
سأبعث معك شيئاً بسيطاً ليأكله ويسد رمقه، حتى يصل البيت
ونأكل سوية.

- لا تقلقي.

حمدان زوجها، دُب بشري، لكن طويلاً القامة، على خديه آثار فصد رفيعة، وله شعيرات قليلة أسفل ذقنه فشلت أن تكون لحية، ثثار جيد، مساعد والد زوجته - سيد سامي - الذي آوى إلى الغار ليقترب بجني ليتحقق له مكانة بارزة بين مجتمعه الفقير.. وليرز كرجل قوي، ذي سلطة لا تُهر.

قبل ستة أشهر جنوب العراق (الهارثة)

١٩٢٧

الشمس تحرق الوجوه والرمال وكل شيء، كان أهل القرية إذا مرضوا.. أو أصابتهم مصيبة أو حلّ عليهم غم أو هم، قصدوا بيت السيد - سامي - لكي يقضي حوائجهم، بأدعية وحرز مطوية على شكل مثلث مغلفة بالقماش الأخضر.

يجلسون في هدوء في صالة الزوار، في بيت من الطين كبير وواسع، يتكون من طابقين، 4 غرف كبيرة في الأسفل، وسلّم يفضي إلى سطح الدار الشاسع، حيث توجد غرفتان واسعتان من الطين.. البيت مفروش بأرقى أنواع السجاد الفارسي.

في صمت رهيب وبينها الفرد ينتظر دوره بين الزائرين، ليقصد مقابلة السيد، أقبلت من الخارج امرأة بجسمها البض ودخلت عليه من غير أن تنتظر ولم يعارضها أحد،

زوجة أكبر تاجر في البصرة، ذي نفوذ قوي آنذاك، كان أهل البصرة
يbabونه ويحسّبون له ألف حساب، زوجته جاءت تبحث عن حل ربما -
العقم - عند السيد، طاوية طول المسافات ليريحها السيد من همّها.

ألوان الحالسين في الخارج مختلفة، بعضهم كلون النحاس مت suction و هوؤلاء
ينتظرون في الخارج تحركهم حرارة الشمس يستظلون بسور الدار أملاً أن
ينهي السيد مشاكلهم بحرز أو دعاء، وهم من الطبقة الفقيرة، أمّا التجار
أو أصحاب الحرف الأغنياء فكانوا يجلسون في الداخل .. تستطيع أن تميز
الغني من ملابسه الفخمة.

المفروض الجميع جاؤوا سعيًا لطلب حاجة أو تسهيل أمر قد تعسر ..
مستعينين بواسطة من السيد لكي يُسْهَل تقربهم إلى الله وأوليائه ... ولكن؟
في داخل الغرفة الأحداث تخبرنا عكس ذلك.

السيد يجلس على كرسي خشبي على كتفه شال أخضر يعتمر عمامة سوداء ..
أصابعه مزدحمة بخواتم فضية، وعلى جانبيه أريكتان، على اليمين تجلس
امرأة، حنطية اللون، ضخمة البنيان، جسدها لين كأنما حشوها سمنة،
ذات ردين خياليين، مؤخرتها رجراحة لوب، فائقة الجمال.

كانت غرفة السيد شبه مظلمة تُضفي الرهبة والخوف في روح كل من
يزيوره، دخان البخور كثيف يملأ المكان.

يتربع على الكرسي كملك.. ويمسح صدرها بعينين ماكرتين مرسوم على شفتيه ابتسامة خبث، متحفزاً، متوتراً كلما رمقته بنظرة لاهثة وحادة، أردفت:

- زوجي يا سيدنا لا يحيط الجنس، أصبعي الصغير يريحني أكثر منه، أريد أطفالاً، وأنت تعلم بأن زواجنا دام عشر سنين ولكنه خصيّ.

كاد أن يهم بسؤالها كيف كانت تكتفي من الجنس طوال عشر سنين ولكنه عدل عن سؤاله، اقترب منها كانت عيناهَا تلمعان بالرغبة، ثم قال وهو يلهمث كالكلب والعرق يلمع في جبينه:

- ولو وهبتك الطفل الذي تحلمين به.. ما هي مكافأتي؟

- حمّلني وسأهديك مال قارون.. فالمال عندي كالتراب.

قالت بإغراء كبير.

اقترب منها رويداً رويداً إلى أن أصبح جسده يلامس جسدها، أمسك بيدها، ثم جعلها تتحسس رقبته، حشرت أصابعها بين سرواله وجسده، قالت:

- سيد سامي أريد طفلاً من نسل الأنبياء، أولست سيداً وجدك رسول الله، إذن لا تتأخر يا سيد.

- اطمئني وسيكون سيداً مباركاً.

ضمته إلى صدرها، فاخترقته، جسدها فاجر الأنوثة، مدّت يدها تبحث عن رمح ذكورته، قبضت عليه فشهقت، ثم قالت بشهوة عالية:

- أراهن بأنّ ماءك سيحرقني، وإنْ أفرغتهُ داخلي سيُخلق منه دود ويجعلني أشتاق وأعود إليك يا مولانا.

أسقطت رداءها، اقشعر السيد من مرأى حلمتي صدرها.

حراوين كثريتين.

- لن أعتق سلاحك الكبير بعد الآن.

وفي لحظة كانت تنخر الرجل، والأخير يلهث، والناس تنتظر الفرج في الخارج ليدخلوا وتستجاب رغباتهم.. جالبين المدايا من الشاه والذهب والمال.. يطمعون في التقرب للخالق والاستجابة لأدعيةهم العالقة بين السماء والأرض.

أما في الداخل فكانا متشاركيين.

مقام السيد المعمم في مناطق الجنوب في العراق سواء النائية أو حتى في الأماكن المتحضرة مهيب، وله سلطة واسعة لا يعلو عليه أي صوت إن أفتى أو صرّح .. فسلطُه خط أحمر من نوع التجاوز والنقاش عليه.

فابتليت المناطق التي يسيطرُون عليها بشتى أنواع غسل الأدمغة واحتواها بالكامل .. عن طريق حشو الرؤوس بالمعتقدات والبدع .
ومع مرور الزمن باتت هذه التسمية لعنة طغت على بقية المذاهب لأنها تأسست لغرض معين، بانت أبعادها بعد قرون.

فخرجت جماعات نسبوا إلى أنفسهم صفة أحفاد آل البيت .-

واعتبروا عبائِم سوداء على رؤوسهم واستغلوا الناس في أمواهم وأعراضهم، وضحكوا على الملايين، لأنهم احتوا العقول بطرق ذكية تحت غطاء الدين، وحدّروا بل ومنعوا الناس من خوض النقاشات بهذه الأمور، والتي تُعرف - بالحقيقة - حيث من يعصي هذه التعليمات يُعتبر خارجاً عن الملة .

والخارج عن ملتهم مصيره النار.

كما سيُحرم العبد من رحمة الحسين وعلي لأنهم سيكونان كالرب يوم القيمة يُزيحان ويدخلان العبد الجنة أو النار.

فارتعشت الأنفس واقشعرت الأبدان، وصدقوا، واتبعوا الأفوايل والأحاديث المحرّفة وابتدعوا البدع وغالوا كثيراً في دينهم وشعائرهم. النقاش منوع، اتّبع ولا تجادل في الأمر.

وكان لظهور المعممين أثر كبير في نشر الفتنة والدجل في جنوب العراق، لدرجة أنهم استغلوا حب الحسين وزجّوهم في ويلات الحروب تحت مُسميات طائفية لا تمت إلى ثورة الحسين بأي صلة لا من قريب ولا من بعيد.

واستشري المرض كما يشتري السرطان في البدن ويأكل الصحة كما تأكل النار الحطب.

«لا عجب لأنّ الشيطان نفسه يُغيّر شَكْلَه إلى شَبَهِ مَلَكٍ نُورٍ».

«قبل أسابيع من الاعتقال في المغارة»

حتى عواصف الخريف أصا بها الرعب.

السماء أظلمت نهاراً واكتست سحاباً أحمر كجهنم، أمطرت السماء رملًا. تصرخ الريح حاملة في صلبيها ثياباً وأواني من النحاس والفضخار، وفروع الأشجار.

من نافذته راقب - سيد سامي - شجرة الليمون تميل حتى توشك أن تنكسر في مساءٍ صاحب تعزف الرياحُ فيه أشد معزوفاتها صبحاً.

وما أن ينزل المطر الحانق تصبح تلك القرية الملعونة بالشياطين مستنقعاً يفوح برائحته الفاكهة المتعفنة. وعندما يكفّ المطر تبدو القرية مغسلة رطبة.

كان مولينا ظهره لحمدان وسارية، اللذين كانوا جالسين حول صينية الشاي، الموضوعة على الأرض، على ضوء السراج.

قال وهو يتأملُ المنظر المخيف متجاهلاً صوت الرياح:

- الجن والشياطين تلجم في مثل هذا الجو المُرعب إلى البيوت، وتبث عن بيوت لا يُذكر فيها اسم الله.. يتوددون لأهل السحر كثيراً.

نظرت ابنته إليه محدثةً يقلق أباها:

- ماذا تقصد؟ - فحانت منها نظرة إلى زوجها الذي كان هو الآخر ينصت باهتمام إلى والد زوجته بدھشة -.

- صوري تُباع في كل مكان، لا يملكون بالخالق بل يملكون بي، في التجارة وفي بيوتهم، البصرة ومناطقها المجاورة تبيع صوري أكثر من صورة الإمام «علي» نفسه.

ضحك باقتضاب ساخر.

- أبي عليك أن تhattat من بعض الأشخاص فهناك من سيدّعي العلم وسينعت كل ما تفعله بالدجل.

قالت بشيء من التردد.

انزعج أبوها بشدة من كلامها، ثم أردف:

- تفاعلي بالخير، لمَ هذا التشاوئ يا امرأة، من أين سيولَد هذا الفارس؟
أنا السيد سامي احتطت لكل شيء.

سكت قليلاً لينشر الصمت الرهيب قبل أن يفجر فكرته:

- خلوة واحدة ستغير كل شيء.

خرج حمدان من صمته:

- هل ستستعين بالله أم بالبيت يا عمي؟

ضحك السيد ساخراً ثم نظر إليه بجزع:

- هل الله سُيَكِّلْمِنِي يا أحمق؟ أم آل البيت سوف ينقدونني وهم راقدون في قبورهم؟.. أراك تُصدق بأن قطع القماش الخضراء التي نوزعها لهم مقابل المال كحرز ممكن أن تخمينا من ثورة محتملة من بعض الطبقات الاجتماعية.

- ولكن الأمور ليست بهذه السهولة، الثورة لن تقوم هنا وستفشل بالتأكيد، الناس قد أكل الدهر وشرب بعقولهم، هؤلاء العراة والخفاة.. أية كلمات سوف تخترق جدار أدمغتهم المتحجرة.. ما إن أخبرتهم رؤياك بأن الإمام علياً زارك في منامك خرّوا لك ساجدين.-
قال حمدان - معقباً.

- سأخبركم قصة حديث قبل أعوام، عندما زار ساحر مغربي وابنته العراق، حلوا ضيفين على الدرويش الذي لقي حتفه، و كان أعزب وقتذاك، وكان حينها يسكن في النجف.. أخبره المغربي بأن هناك كنزًا مدفوناً في صحراء النجف وطلب من الدرويش المساعدة.. بعد بحث لم يدم طويلاً بفضل المخطوط وجدوا المكان، وفي إحدى الليالي وبالقرب من مكان الكنز جلب المغربي ماعزاً أسود فذبحه وأساح دمه في دلو وتعري، ثم طلب من الدرويش أن يمسح بدم الماعز جسده

بالكامل وألا يترك مكاناً إلا ويمسحه، حتى في كل ثقب من جسده وبالتحديد فتحة الدبر.. وطلب من الدرويش بأن يترك الخجل جانبًا لأن الخجل في هذه الأمور سيكلف حياة المغربي.

كانت سارية وزوجها ينصنان باهتمام وبدون أن يقاطعاً أو يسألاه عن شيء.. واصل السيد:

- تقدم إلى مكان الكنز بخطوات ثابتة وعزم، بعد أن طلاه الدرويش بالدم، مسح كل منطقة من جسده، كان المغربي أثناء المسح يتمتم بطلاسم معينة لكي يتفاعل مع السحر والدم، قبل أن يتقدم بشجاعة كبيرة، وقبل أن يظهر تنين مربع يحوم حول الكنز غاضبًا غير مرحب بالزائر.. يفرد جناحيه الأسودين العظيمين.. ويكتس السماء نافثًا نيرانه. وما إن رصد جسارة المغربي وهو يتقدم بكل ثقة إلى الأمام.. حتى نفث عليه النار فأحرق الجسد بالكامل حتى غدا فحمة.

ذهل الاثنان وتملكتني الرهبة حتى النخاع، وضعت المرأة يدها على فمهما من هول الفاجعة ولم تتمكن نفسها من الصدمة.. تبكي والدها بشدة.. «ثم سأله حمدان مقاطعًا»:

- لماذا تفحم الرجل؟ أو لم يكتس جسده بالدم؟

- لأن الدرويش استحق من لمس دبر الساحر، فقد خجل الغبي، وظن المغربي نفسه بأمان، وأن الدم قد غطى كل أجزاء جسمه، لكي يأمن نار التنين.. ولكن ضاع الرجل، فعادت ابنته إلى المغرب تجر أذيال الخيبة والحزن.

- ولكن يا أبي هل في نِيَّتكَ أَنْ تُخْرِجَ الْكَنْزَ.

- لا، بل أَكْبَرُ مِنْ هَذَا الشَّيْءِ، فَهَذَا الْكَنْزُ لَا يُغَيِّنُنِي بِشَيْءٍ، وَلَنْ أَقْبَلَ إِلَّا
بِالشَّيْءِ الْأَكْبَرِ.. سُوفَ اتَّحَالُفُ مَعَ الْجَنِّ.

قَالَهَا بِصَوْتٍ خَشِنٍ ارْتَدَعَ لَهُ بَدْنُ الْاثْنَيْنِ، كَادَتْ أَنْ تُصْرَخَ وَلَكِنْ حَمْدَانَ
أَسْرَعَ بِوَضْعِ يَدِهِ عَلَى فَمِهَا حَتَّى كَادَ أَنْ يَكْتُمَ عَلَى أَنفَاسِهَا.. فَزَاحَ يَدُهُ
بِبَطْءٍ وَحْذَرَهَا مِنْ تَكْتُمِ الْأَمْرِ، ثُمَّ سَأَلَ بِفَضْولٍ:

- مَاذَا تَقْصِدُ يَا عُمَيْ؟

- حَصَلَتْ عَلَى طَلْسِمٍ مِنْ سَاحِرٍ هَنْدِيٍّ زَارَ الْبَصْرَةَ قَبْلَ فَتْرَةٍ وَسَأَجِرْهُ.

- وَلَكِنْ يَا عُمَيْ هَلْ هَذَا الطَّلْسِمُ حَقِيقِيٌّ؟

- كِتَابُ الطَّلْسِمِ الْأَسْوَدُ، زَوَّدَنِي مِنْهُ مَا يَكْفِي لِكَيْ أَحْقِقَ مَا أَرِيدَ.

- أَبِي هَلْ تَعْتَقِدُ بِأَنَّ أَمْرَوْرِ الْجَنِّ وَاقِعِيَّةُ، أَنَا لَا أُؤْمِنُ بِهَا.

- عَزِيزِي هَلْ سَمِعْتَ بِالْجَنِّ الْعَاشِقِ؟

قَالَتْ ضَاحِكَةً بِسُخْرِيَّةٍ:

- أَرْجُوكَ لَا تَضْحِكُنِي أَكْثَرَ.

لَمْ يَهْتَمْ بِسُخْرِيَّتِهَا، زَمَّ عَلَى شَفْتِيهِ فَازْدَادَ لِمَعَانِ عَيْنِيهِ الَّتِينِ تَقْطَرُتَا شَرَّاً،
بَاتْ مُخِيفًا وَهُوَ يَهْمِ بِالشَّرْحِ، حَتَّى انْعَكَسَ نُورُ السَّرَاجِ فِي عَيْنِيهِ، نَجَحَ فِي
إِدْخَالِ الرُّعبِ فِي قَلْبِ الْاثْنَيْنِ:

- الجن العاشق .. هو نوع من أنواع الجن الذين يكونون تحت حُكم الملك -
ملك العشيرة - ويكون نوعاً مسالماً لكنه مؤذٍ في بعض الحالات، وحين
يُعجب بالبشر، في البداية يتملك قلب الإنساني ثم عقله ثم روحه.

انكمشت الفتاة على نفسهاها واقتربت من زوجها ليضمها في حضنه،
حانت من السيد ابتسامة خبيثة عندما رأى ردة فعليهما، وقال:

- يوهـمـ الفتـاةـ أوـ الرـجـلـ عـلـىـ عـلـاقـةـ حـبـ وـالـحـبـيـةـ مجـهـولـةـ ..ـ وأـغـلـبـ
ضـحـاـيـاـ الجنـ العـاشـقـ هـمـ الـبـنـاتـ وـقـلـيلـ مـنـ الـأـوـلـادـ .

- يا رب رحـمـاكـ .ـ هـمـسـتـ بـخـوـفـ .ـ

- قد يُعجب بصوت الولد أو بـشكلـهـ، ثم يبدأ بـممارسة طقوسهـ معـهـ، أما
البـنـتـ فـتـكـوـنـ حـالـةـ خـاصـيـةـ بـالـنـسـبـةـ لـهـ، يـظـهـرـ لـهـ فـيـ المـرـآـةـ، يـرـاهـ وـلـاـ تـرـاهـ،
فيـعـجـبـ بـجـسـدـهـاـ وـجـمـاـهـاـ، غـيرـ أـنـهـ يـعـشـقـ الـفـتـيـاتـ ذـوـاتـ الشـعـرـ الطـوـيلـ
وـيـبـدـأـ يـطـارـدـهـاـ فـيـ الـأـحـلـامـ ثـمـ النـوـمـ وـأـخـيـرـاـ يـظـهـرـ لـهـ .ـ

تقدّم ناحيتها ببطء، فانكمشت المرأة أكثر من الخوف، تحاول تمالك
نفسها، ثم باعتها بطلبه:

- صـبـيـ لـيـ الشـايـ عـزـيزـيـ .ـ

وبـرـعـشـةـ يـدـيـهاـ صـبـيـ الشـايـ فـيـ الـقـدـحـ وـقـدـمـتـهـ لـهـ، كـانـ وـاقـفـاـ يـتـابـعـهـاـ
بـصـمـتـ وـرـضـاـ ..ـ ثـمـ أـرـدـفـ:

- على الرغم من اسمه الجذاب - العاشق - إلا أن الاسم لا يعكس حقيقة شكله قطّ .. يشبه أقوام الهنود الحمر القدماء، ذو جسد طويل وأسود مخطط البدن بالأبيض ويرتدى الرئيس الأحمر على رأسه كالتاج .. ذو وجه طويل وفك مدبيّب، وتبعد عيناه مظلمة ينفتح السواد منها.

لم يكن وقع حديث المساء المخيف سهلاً على ساريه.. فبعد أن انتهوا من الكلام، وانفضّ الجميع ليناموا، ولكي يطمئن قلبها كانت تطوف بالحجرات مصطحبة زوجها حمدان الذي تبعها على مضض، مادة يدها بالفانوس فتلقي في أركانها نظارات متفحصة خائفة ثم تغلق الأبواب بإحكام، واحداً بعد آخر، مبتداةً من الطابق الأرضي مشتبأ بالطابق الأعلى، ثم تنتهي إلى حجرتها فتغلق الباب وتندس مع زوجها في الفراش، منكمشة في أحضانه.

تكررت هذه الحالة كثيراً، ففي وقت الغروب عندما كانت لوحدها أحياناً، كانت أشد خوفاً، بدأت تستوعب عالم الجن، أنها لا تعيش وحدها في البيت الكبير، وأن الشياطين لا يمكن أن تظل بعيداً عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية، ولعلها آوت إليها قبل أن تولد هي في البيت.

فبدأت تدب إلى أذنيها همساتهم، وكم من مرة استيقظت على لفحات من أنفاسهم، حتى زوجها الرائق بجانبها لم يغتها بل غطّ في نوم عميق. كانت تهرع إلى الشباك لتتمد بصرها الزائف إلى الشارع الذي يلتهظ الظلام، لا أصوات سوى فحيح الرياح المخيفة، ترهف السمع لالتقاط ضحكة أو سعلة تسترد بها أنفاسها.

«بعد الخلوة»

كان ينتظر محتياً خلف صخرة كبيرة في الخلاء، وقت الغروب، لينزل الليل بهدوئه المعهود. سيخرج السيد قريباً من خلوته، كان بدنـه يقـشعر وـكأنـ أشـباح الصـحراء تـنـظر إـلـيـهـ بـنـهـمـ. والنـهـارـ يـغـوصـ إـلـىـ قـلـبـ الـأـرـضـ، ولـنـ يـخـرـجـ مـوـلـانـاـ حـتـىـ يـسـتـقـرـ الـظـلـامـ فـيـ كـلـ رـكـنـ، ويـتـسلـقـ السـمـاءـ.

رأـيـ رـغـمـ الـظـلـامـ الشـدـيدـ شـبـحاـ يـخـرـجـ مـنـ فـمـ الـغـارـ، بـرـادـاهـ الأـيـضـ، لـوـلاـ قـرـبـهـ مـنـ الـغـارـ وـضـوءـ الـقـمـرـ لـبـاتـ رـؤـيـةـ السـيـدـ أـمـرـاـ صـعـبـاـ.

بدا واضحاً في العتمة كلما نزل من السفح واقترب من حدان، أمسك بتجة الطعام وهو لعيّل يده ويهنته على سلامته.. تفزع من رائحته، كانت مقرزة تقتل الكلب في مكانه. كانت رائحته قبيحة عطنة، كفاكهة عفنة، العرق السام يلتتصق بجلده.

- جلبتُ بعض الطعام لكي تسند به طولك.

- غبي وهل هذا المكان يفتح الشهية للأكل.

لم ينبع حدان بكلمة وارتدى لزوم الصمت، أسلم له من تلقّى صفعات الكلام من السيد البذىء.

كان الهواء رطباً مُشبعاً بالملح، ينضح ببرودة خفيفة، والسماء مثقلة بسحب الصيف، توشك أن تسقط على الخلاء.

- قلقنا عليك جداً مولانا، فحمدًا لله على السلامة.

- حذرتك ألا تذكر اسم ربك أمامي مرة أخرى.

أطرق حدان خاشعاً، وقبض الرعب روحه، لم ينبع بشيء. رائحة السيد كالخراء، كيف ستكون الحياة بعد هذا اليوم معه، هل سيحافظ على عادته أم أن التحالف مع الجن سيغير الكثير من مجريات الحياة.

- ستقول حمداً على سلامتك مولاي السيد، فالجن من سيتولى أمورنا من اليوم وصاعداً.. أنا من أتبعهم منذ اليوم.

- هل تقصد أنك رأيتهم؟

- اسمع - مال برأسه إلى حدان حتى كاد أن يتتصق بوجهه، يحذره بلهجته غريبة.. مخيفة للغاية.. وقد تغيّر صوته فجأة إلى بحّة مرعبة، وكأنه صوت شبح يتكلم عن لسان السيد - لن تسأل أكثر مما سألت اليوم،

إن كنت تريد فعلاً أن ترافقني وتصل بسلام إلى البيت، قبل أن أفجرك
بُسخطي عليك وأفصل رأسك عن جسدك.

أفرغَّته جدًا نبرة الصوت المبحوحة، لم يكن قط صوت السيد.. شخص آخر تلبسه ويتكلّم بالنيابة عنه، التزم الصمت رغم الخوف الذي يكاد أن يمزقه والرجفة بدأت تلازم بدنـه. ضاع صوته من حنجرـه خوفاً وهلعـاً، ولا يدرـي كيف ما زالت ساقـاه تحملـانـه، ربما قوى خفـية من الجن تحـمل ساقـيه ليواصلـ المـشي مع عـمه.. من يـدرـي؟

- ماذا لديك في الـصـرة؟

تمـ بـخـوفـ:

- سـارـية بـعـثـت بـعـضـ الأـكـلـ.

رفعـ الصـرة بيـدهـ التيـ ما زـالت تـرـجـحـ حتىـ توـازـىـ معـ مـسـتـوـىـ عـيـنـ السـيدـ،
رمـىـ السـيدـ نـظـرةـ سـرـيعـةـ إـلـىـ الصـرـةـ، ثـمـ لـاحـتـ مـنـهـ نـظـرةـ اـسـتـنـكـارـ اـقـشـعـرـ لهاـ
حمدـانـ.. الـذـيـ اـنـفـضـ بـدورـهـ مـنـ الطـرـيقـةـ الغـرـيـبةـ الـتـيـ يـتـصـرـفـ بـهاـ السـيدـ،
أشـاحـ بيـدـهـ قـائـلاـ بـصـوـتـ أـجـشـ:

- سـنـاـكـلـ فـيـ الـبـيـتـ.

- سـارـيةـ جـهـزـتـ الـحـامـ أـيـضاـ.. لاـ يـفوـتهاـ شـيءـ أـبـداـ.

لم يتمالك السيد نفسه.. فز مجرّ بصوتٍ قطع هدوء الخلاء:

- أي حمام أيها الغبي، لا حمام لي بعد اليوم، إلا كُل أربعين يوماً، عليك أن تعرف ذلك.

لمس حمان لأول مرة في السيد تغييرًا مفاجئاً.. فلم يجد فيه اللين كالسابق، ولم يعهد هذه التصرفات من قبل.. الأريحية بالكلام والتودد إلى عمه كانا يضيّفان إلى نفسه الطمأنينة، ولكن ما يراه الآن خالٍ من كل ود.

كانت كلمات السيد تنخره بشدة.. وطغى بعض الخوف عليه، خصوصاً بعد أن تكلم بصوت غير صوته.. وكان شخصاً آخر يتكلم.. يخاف في قرارة نفسه أن يفكر بشيء، لكي لا يُفضح تفكيره للجن.. ويُوشِّي أفكاره لعمه ويفتضح.. الأحسن أن يمتنع عن التفكير لكي لا يقع في المتابعة مع عمه وقرينه.

رغم الظلام الدامس، إلا أن المارة كانوا كخنافس نشطة، يسيرون حفاة، كانت تراقبهم من شباك غرفتها، متحلية بالأأساور والحجل، حلوة كخبر مفرح، تدبّرها إلى الأفق الأسود، تُنزل قدميها عن الأريكة المحاذية للشباك، تنھض.. تذرع الحجرة الواسعة بقلق، تتأمل السقف الخشبي، تتمتم بأشياء، وربما الدعاء بعودة والدها وزوجها بخير وسلامة، ثم تتجه بقلق إلى الشباك ترقب الطريق، لا ترى من تنتظر قدومهما، تدبّرها إلى الأفق الأسود مرة أخرى، لا تكاد تميّز شيئاً، تأخرًا كثيراً.

رائحة الملح تصلها في مكانتها محملة بالرؤى. أبوهااليوم سيكون سيد القرية لو نجح في خلوته، لن يزعجهم أي شخص من سيديّعي الحرب ضد الجهل أو حتى وإن كانوا رجال الأمن. تحاول مد بصرها شمالي لعلها تراهما، لكنها ما زالت لا ترى شيئاً.

ما زالا يمشيان حتى وصلاً أطراف القرية.. دخلا في أول زقاق بصمت،
لم يشأ السيد أن يراه أحد وهو يسير على الطريق العام.. لا قبل له ولا
شهيبة باستقبال أحد، ففضل اللووج في الأزقة المظلمة.. للوصول إلى
البيت بسلام وهدوء.

التعب بادٍ على الاثنين، جو خانق، لا هواء يتحرك، يقبض النفوس، ثم
سؤال السيد حمدان بهدوء:

- الصمت يعم القرية، أتراهم ناموا من شدة الحر؟

- يتمنون رجوعك من إيران، كما أوصيتي أن أقول، يتظرون رجوعك
لتشفي مرضاهم وتنفحهم بأحgebung الرزق والبركة.

- أغبياء. «همس السيد بحنق».

ثم سأله مرة أخرى باستنكار: وماذا أيضًا؟

- وتقدذف في قلوب النساء الطمأنينة.

أجاب حمدان بُخثٌ رغم الخوف الذي تسلّق مفاصله.
سارا طويلاً حتى اقتربا من البيت ثم بادر حمدان قائلاً:

- ها قد وصلنا أخيراً أكاد أرى شبح سارية المُنير في الشبّاك تنتظرنَا.
أشار إلى ناحية الشبّاك هامساً يكاد يلتصق بوجه السيد من الغبطة.
- سيدنا يجب أن ترثا، فأمامك واجبات كثيرة.. ما أن يسمعوا بك قد
وصلت حتى تكتظ الدار بالزيارات.. لتهديهم من فيض بركة زيارتك
لإيران لضريح الإمام الرضا.

حدّجه السيد بنظره احتجاجاً أن اخرس.. ولم يُعلّق على تفاهات حمدان،
كان يهدّر كل الطريق بلا توقف.. وقد حان الوقت لكي يسكت.

لمحت سارية والدها من بعيد حتى نزلت مسرعة لاستقباله مشتاقة، ففتحت
باب الدار، تبدو مشرقة متهللة تتمايل وهي تستقبل والدها بكلمات الاشتياق
أضافت لوالدها الارتياح العالي لرؤيتها بهذه الزينة. ارتمت في حضنه سعيدة:
- والدي اشتقت إليك.

تجاهلت رائحته الكريهة.. وحاولت أن تكتم أنفاسها دون أن تلمس شيئاً
من انقباضها من رائحة أبيها، احتراماً له.

قال بعينين تلمعان من نصر لطالما كان يحلم به:

- وهل لي في الدنيا غيرك، ابنتي، انتهى زمن الخوف. والدك عاد قوياً..
أقوى من قبل.

ثم مجدداً فتح ذراعيه واسعتين وضمّهما فضmetه.. وقبلها فقبلته.. وكأن في
رجوعه كان يحمل العيد.

يُوْمٌ كَفِيرٍ مِّنَ الْأَيَّامِ، لَا الشَّمْسُ تَنْذِرُ بِمَا سَيِّقَ، وَلَا النَّاسُ يَعْرَفُونَ مَا تُخْبِئُ الْأَقْدَارُ لَهُمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَتَكَبَّلُونَ الْوَاحِدَ تَلَوَ الْآخَرَ، بَعْضُهُمْ حَضْرٌ لَتَقْرَأُ سَارِيَةً لَهُمْ طَالِعُهُمْ، وَأَغْلَبُهُمْ حَضْرٌ وَالرُّؤْيَا السَّيِّدُ وَأَخْذُ الْبَرَكَاتِ مِنْهُ، يَطْلَبُونَ بِأَنْ يَنْفَحِّمُوهُمُ السَّيِّدُ بِحَرَزٍ أَمِينٍ يَحْفَظُهُمْ مِنْ شَرِّ الرَّأْيِ وَالْحَسْدِ وَالْعَيْنِ، وَالرِّزْقِ وَالْحَمْلِ.. وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَمْوَارِ الَّتِي تُشَغِّلُ بَاهِمْ.

رِيَاحُ السَّمُومِ تَهْبِّ حَارِّةً كَلْهَبٍ مَسْمُومٍ، فَالْوَقْتُ هُوَ الصِّيفُ.

كَانَ كُلُّ مَنْ يَدْخُلُ إِلَى صَالَةِ السَّيِّدِ الَّتِي يَجْلِسُ بِهَا لِاستِقبَالِ زَيَّانِهِ يَشْكُو غَيَابَهُ.. وَيُظْهِرُ فِي كَلَامِهِ مَدْيَ اشتِياقَهُ لِرُؤْيَا مَوْلَاهُ السَّيِّدِ.

افْتَقَدَهُ أَغْلَبُ النَّاسِ.

كَانَ السَّيِّدُ يَوْضُّحُ لِكُلِّ زَائِرٍ مِنْهُمْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْآتِيَ:

- الإِمَامُ الرَّضَا.. عِنْدَ زِيَارَتِي لَهُ، طَافَتْ رُوحُهُ مَعِيَ حَوْلَ الْمَرْقَدِ وَكَأْنِي أَرَاهُ «هَنَا فَتَحَ الرَّجُلُ فَاهْ مَعْلَنَا اهْتَمَاهُ لِاسْتِمَاعِ قَصَّةِ السَّيِّدِ» كَانَ يَبْتَسِمُ لِي، يَعْلَمُ عَنْ رِضاَهُ عَلَيَّ وَعَلَى كُلِّ مَنْ يَتَبرَّعُ بِالْخُمُسِ -الرِّزْكَةِ- فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ،

وأنا نائم ذات ليلة زارني في منامي، كانت رؤيا تبشر بالخير، بشرني أن ما أفعله في خدمتكم هو عين الصواب في زمن قل فيه الصدق، وأهداني عباءة خضراء وقال لي: يا سليل أحفاد النبي بلغ شيعتي بأنهم بخير والجنة مشتاقة لهم.. مشتاقة لكل من لطم من أجل «الحسين» وأحيا ذكراه وطبر لحمه في سبيل أن يتالم لآلام آل البيت ومصابهم المرّع.

هنا قام الرجل خاشعاً وصلى على النبي وآل بيته ثم جثا على ركبتيه وزحف إلى أن وصل إلى قدم السيد وانهال بالتقبيل على الساقين.. رماه السيد بنظرة وابتسمة ماكرة.. ربت على ظهر الجاثم على ساقيه.. ثم مسح على شعره برفق قائلًا:

- لقد وفيت وكفيت ونلت رضاي ورضا آل البيت.

أخرج الرجل كيساً من المال ودسه بخشووع وهدوء في يد السيد ثم زحف إلى الوراء حتى استقام حانياً ظهره وغاضاً بصره ليخرج متمتماً:

- بارك الله بمولانا السيد، بارك الله بمولانا السيد

حتى توارى خلف الباب.

لمعت عينا السيد وزفر بسعادة ورضا وهو يفرك بكيس النقود..
مستمتعاً بنغماته الساحرة التي تصدرها القطع المعدنية.

كان وجهه يفور بالنفاق، ينحت كذبًا بتقوى مصطنعة على ملامحه أمام كل داخل إليه، كل من يدخل إليه كان يحمل عطايا يغدق بها مولاهm العتيد.. أو يجلبون له بقرة أو عدداً من الأغنام حتى أصبحى السيد أغنى الأغنياء في البصرة وفي وقت قصير.

وهكذا يجد الأهالي أنفسهم يطعون السيد طاعة عمياء، رجل يعتمر عمامة سوداء.. ذاع صيته فجأة من دون سابق إنذار، لا يحق لهم الخوض في نقاش حول الدين، من نوع ثم منوع، النقاش سيُخرجك من رحمة «الحسين» يوم القيمة لأنه هو من سيُدخل شيعته الجنة حتى ولو كانوا في النار، هذه محاضرات تُقْسِّت وباتت تُدرَّس في مجالسهم إلى وقت طويل.

تفشّت في البصرة ظاهرة - سيد سامي - حتى بات مقدّساً، ومن يسهرزى بالسيد سامي يُحذّرُوه من معبة وخطورة فعلته وأنه سوف يُصاب بعجز في أجزاء جسده، وسيتحقق كل من يتجرأ بسوء على السيد سامي لعنة إلهية.

وكانت صور السيد تُباع من قبل الباعة أكثر من صور «الإمام علي» نفسه.. وسرع الصورة وصل إلى مرتبة أعلى من مراتب بقية صور الأئمة المتداولة في أسواقهم.

صور كبيرة أو صغيرة تُنسخ منها المئات وتُباع، يعتقد حاملها أنها بركة كبيرة وستبعده الصورة عن كل سوء.

وجه مستطيل يعتمر عمامه سوداء بشارب ولحية تغمر نصف وجهه تخللها شعيرات بيضاء.

من يبتעהها يقبلها باحترام بالغ ويضعها على رأسه إجلالاً لصاحب الكرامات ثم يضعها في جيده، أحدهم قال فرحاً:

- أقسم بالسيد سامي، ابني كان مريضاً جداً.. ما إن مسحت صورة السيد على وجهه وجسلده حتى اختفت الحمى بعد سويعات قليلة وشففي تماماً.

فأجابه الآخر:

- بركات السيد لا غبار عليه، جده سلام الله عليه الرسول الأعظم، لا حجاب بين السيد وبين ربّه، لقد سمعت بأن الإمام الحسين أهدي سيد سامي بركات لا تنتهي أبداً عندما زاره في المنام.

ثم أكمل الثالث:

- يحب أن نحافظ عليه من الحاقدين، ولا سيما عيون الحكومة الكافرة، فالحكومة تخاف من رجال الدين.

وابعد أحدهم فرحاً وهو يشق بسعادة التيار الراهن من الناس الذين يسدون الطريق بزحمتهم.

كان المسأء يسيل على جسدها. عارية كبهجة متوحشة، بيضاء كحليب البلابل. شعرها البندي مبلل يلتصق بعنقها ويتشبث بو جتيها. عنقها طويل كغزال. ونهادها ثمرتا تبليدي.

فردت شعرها على كتفيها والتقطت ثوبها ثم انزلق بأمان على جسدها ليُعطي جسدها البعض.. تفوح منها رائحة الجlad وماء الصندل.

كان والدها من وراء باب الحمام يقطر بالدنس يرافق من ثقب الباب الخشبي الصغير. يلهث ولسانه يندلق من فمه مداعبًا بشهوة عظيمة باطن سرواله على رؤيته مفاتن سارية وصوت خفي يتلو على أذنيه:

- هذه الجميلة البضة التي حرمت نفسك منها بقانون إلهي جائز.. هذه ستكون لك.. لك وحدك.. قانوننا لا حرام فيه فكل شيء فيه مباح.

لوّشت قطرات المني رداءه، تراحت قبضته شيئاً فشيئاً، وعندما همت سارية بالخروج.. ارتبك وفر قبل خروجها، تراجع فاقد الصواب، تعثر، ليصدر صوتاً خافتاً، انتبهت سارية فظنت أنه الجن العاشق.

ملمت نفسها وأخذت حاجاتها لتخرج فارّة مُسرعة من الحمام حاملة معها الفانوس، فتحت الباب وخرجت ترکض لخبر والدها بما راودها من مخاوف. كان جالسًا بهدوء يتصنّع القراءة في كتاب كبير متهرئ الصفحات يقلبه بهدوء..

جاءه صوتها تستغيث بخوف جميل:

- أبي.

رفع بصره بهدوء ووقار وهو متربي كالملوك.. رأها بيضاء يُغلّفها النور الفضي:

- نعم سارية.

قالت لاهثة:

- كنتُ في الحمام وأحسست بأن أحدًا يُراقبني خلسة وأنا عارية.

تبشر وجوده.. واضطرب ثم قال بارتباك:

- من؟

- لا أعرف ربّما الجن العاشق.

هنا أطلق ضحكة عالية وبأريحية كبيرة قائلًا:

- وكيف لا يعشقك «قام من مجلسه واقترب منها بشهوة العاشق ووقف خلفها يكاد أن يلتجم بظهرها» لكِ عينان مشاغبتان، وأنت بالنسبة

لرجال والجن شهية، نصرة، يكسوك جلالٌ وفتنة، ضحكتك ملعة
مسروقة من القمر.

ابتسمت فبان حسنها كالقمر بشعرها الذي يسيل كالنهار المشرق، قالت
وهي ساهمة في كلام أيها:

- ليت هдан يخبرني بذلك.. ليته مثلك.. ولكن عييه لا يعرف الكلام الجميل.
- ابن الزانية، لا يحس بقيمة ما يملك من حسناء - داعب بأصابعه شعرها
وقرب أنفه من خصلاتها وشمّها بشذوذ - أنت الماس بل أغلى من ذلك.

استدارت برفق نحو أيها الذي اعتدل بسرعة لكي لا يثير شكّها، قبّله ببراءة
الأطفال على جبينه ثم تركته وصعدت عبر السلالم إلى غرفتها، التفت بانتعاش
وحسرة إلى مؤخرتها وهي تصعد السلام.. والأرداد تتمايل صعوداً وزنزاً..
يا لها من بضّة..

أفاق من همس الصوت الخفيّ الذي أثاره مرة أخرى.. فانتفض:

- انظر، وأشبع النظر من مؤخرتها، تخيل كيف ستضاجعها، إنها لك، إنها
لك، انتظر مثناً ساعة البدء، ولكن الطفل سيكون لنا.. نأخذه، وليس
لك أن ترفض.

- وزوجها؟

- دبّرنا أمر التخلص منه، تحتاج إلى خادم مطيع، لا منافس على مُلْكِك،
لا يصلح زوج ابتك أن يرافقك بعد الآن.

هنا جحظت عيناه، فواصل الصوت الهامس بتأنٌ:

- سنجعله يتسبّث بشيء أمل لا يدر حليباً.

- لم أفهم.

- يريد أن يتآخى مثلك مع الشيطان ولكن سنضللها وستكون نهايته
على يديك.

انتفض برع وسائل:

- أقتله؟

- لا، ولكن الخلاص منه سيكون على مراحل وعلى يد الشيطان المولود
الذي سينجّبه من البيضة.

- ينجب جنّياً؟

- سنخبرك بكل شيء بعد حين.. لا تتعجل الأحداث.. جعلناك ملكاً في
قريتك، أعطيناك ملكاً يحلم به الكثيرون، وستفوق ملك سليمان.. أنت
اليوم بالنسبة لهم كالنبي.

تلاشى الصوت، وانسحب تاركاً صدى النبي يتربّد في أذنيه مصدرًا
فحيج هواء مخيفًا، تركه الصوت.. في ذهول لذيد.

الحياة يصنعها المتعوهون، اللصوص، الوصoliون، الزناة والقوادون، تلك العجينة من القدريين، وفاسدي الشرف يقيمون أضلاع المثلث ليلىًّا، حفلة للأغنياء في قصر «رفعت بيك» بمناسبة عيد ميلاد زوجه - حميدة - الجميلة التي كانت تواقة لطفل لا يُهم من يكون أباًه. رغبتها فقط في طفل يرث والده.. زوجها الأكبر منها بثلاثين عامًّا.

- رفعت بيك - يعني من أزمة قلبية حادة، الدكتور أكد بأنّ الأزمة الثانية لن تبقيه على قيد الحياة. عليه الابتعاد عن المشاكل لكي لا يُصاب بأزمة من شأنها أن يفقد حياته.. لم تكن تهتم بحياته بقدر اهتمامها للمال بعد أن ترثه، كانت تحذر ظاهريًّا من الإفراط بالشرب، حين أكبت على استظهار نوع من الحب الظاهري أمام المجتمع المحيط بهم.

كان جو الحفلة معفراً بالفساد، وهم يحتفلون بعيد زواجهما، «رفعت بيك» سكرًّا تماماً، يتسامر مع ضيوفه في حديقة الفيلا الواسعة، غادرت حميدة الحفلة بعد أن سبقها شاب بإشارة منه إلى داخل الفيلا، وتسلل بخفة عبر السالم إلى الطابق العلوي بعد أن تأكد من خلو الصالة من الخدم،

لحقته هي بعد أن تأكّدت أن الجميع قد غاصوا في غمرة السُّكر، رفعت ييك
ثمل يعل الكأس ويسربه يتزنج بين المدعوين .. حتى أخذ مجلسه بين نساء
ورجال سكارى كانوا يضحكون مرحين، فرحين بجوهم الخلاب الذي
تعشّى قلوبهم بشتى عواطف الحماس والحب.

دخلت وراءه إلى إحدى الغرف المظلمة، كان مختبئاً وراء الباب .. وما إن
أوصدته حتى باعثها فجأة .. بسحبها من ذراعها مطمئناً إياها بأن لا أحد
سيصل إليهما، لثم جبّينها .. ذلك الشاب الأسمراً الأنثيق، عاتبه بإغراء
شرس - بعد أن ضمّها إلى حضنه .. تعاتبه - على المرأة التي اصطفها عليها
زوجته «صفية» - وكأن النساء أصبحن لديه كثمار الأرض كل واحدة
منهن لها تربتها التي تتشبث بها، ولها مذاقها المثير لشهوة القضم، تغيب
عنا في فصول، تقلّب يحدث في الأرض والروح والرغبة ..

يلشم رقبتها ويتجاهل عتابها، يعصر نهديها، يكاد يرفع ثوبها تمنعه، تحت
ستر ظلام الغرفة انزويا في زاوية الغرفة.

- لا أستطيع التخلص منك، وكأنك تأتين في المواسم كالفاكهـة، أنت أول
طعم لذيد تسلل إلى جوفي.

- وصفية؟

سألته مُحتّجة.

هنا عصرها من ثديها بشهوة ونار حتى لا مس صدرها صدره فاشتعلت
بيneathا نار شهوانية بانت حرارتها عندما تحول الكلام إلى همس حارق
أفحمت الاثنين:

- ألا تنسين قليلاً.

كانت تتكلم بكل رضا وارتياح وهو يشدّها هائماً بأعصاب انها رت
من لوعة أنوثتها التي لا ترحم، فرّت منها آهه، ظل يحتضنها وشم
رقبتها ولثم شفتيها حتى أفلت الزمام من الاثنين وغرقا في نشوة
طويلة، ترتعد فرائصها من قوة دفع الشاب الأسمري، غرس أصابعه بين
إبطيها وراح يشدّها أكثر وهي مولية وجهها للحائط. التفت إليه بهدوء
وتوقف هو ليثبت عينيه في عينيها.

بقبلة طويلة على شفتيه قالت بخدر عميق:

- أحبك رغم أنني أكبرك بسنوات.

أجابها:

- وهل تطيب علاقتنا بدون فارق العمر.

- جودت، أتعلم كم أشتاق إليك حتى وهو بجانبي على السرير.. مُرميَا
كالختزير الميت.. صدقني لا أكاد أطيق هذا الخنزير، متى يتلهي ونتلهي منه.

أدنت وجهها منه فمدّ شفتيه ولثم خدها، تناولت ذقنه بأنامل يمناها
و قبلته تكراراً، وكأنّها جوعى التقبيل، ثم قال محذراً وكأنه فطن إلى أمر
أهم من التقبيل:

- حسبنا هذا التأخير فقد يتبه أحد لاختفائنا.

مسحت على شعره مبتسمة تطمئنه:

- لن تجد أحداً صاحياً الآن.. الجميع يتزّح وقد تجد زوجاتهم في أحضان
غير أزواجهن.

انسابة بخفة من الممر المظلم ثم جعل حميدة تنزل أولًا من الدرج إلى
السلاملك ومن ثم إلى حدائق القصر وبعدها تبعها العشيق بخفة الغزال
واندس بين الحضور.

سرعان ما فترت روح السيد سامي ولاح في عينيه الضيق ولزم الصمت ملياً، كان جالساً في الصالة الكبيرة متربعاً على الأريكة الخشبية، وآنس حдан من صمته تسللها ف قال بظفر:

- ولم العصبية يا سيدنا، وماذا يحدث لو أتبّع أسلوب السحر ويكون لي جني قرين، كما لك.

- اسمع حدان، لكي تؤاخِي جنِّيَا، فهذا ليس بالأمر المُهِنْ، أمامك امتحانات صعبة لتشبت جدارتك على الشجاعة الكافية لتمكن من الصمود أمام أشكالهم المريعة وإلا فستُجنَّ حتى وفي هذا الموضوع لا يوجد هزل، وستُصبَّ عليك اللعنة إلى أن يقودوك إلى القبر، فلا رحمة لديهم.

- وإذا صمدت أمامهم؟

- لا أعتقد «مسحة السيد بننظره احتقار واستهانة، فضاق ذرعاً منه ووَدَّ لو يقتله في الحال».

قعن السيد في وجه حدان مجدها وكانت فكرة جهنمية خطرت على ذهنه.. أنا ملهم غاصت في حيته وبدت عليه علامات الغضب، لا بد أن قرينه كان على حق عندما حذر من حدان.. وهذه بداية حماقة قد ظهرت من حدان.

قال السيد بامتعاض ومكر:

- السيد كندياس، أقوى ملوك الجن، يسانده ناصور وهو جني قوي، أي خطأ في تعويذته الخاصة يصدر من قبلنا ولو بحرف سيسبب ضرراً جسيماً، وأحياناً يصل إلى الموت، أناس أخطؤوا فقتلهم الجن، اسمع يا حمان...

مال بجذعه نحو حمان، ففعل حمان نفس الشيء، اشرأب عنقه وبدأ يصعي بدقة وحدر إلى السيد:

- عالمنا غير سهل.. لي صديق مغربي كان ساحراً كبيراً.. بدأ متجمجاً قبل أن يخاطر له أن يدخل في عالم الجن، جلس يوماً وهو عاكف في الخلاء يستعد لإحضار جني، وفي أثناء خلطه بالخمور، أخطأ في التعويذة حتى أصابه الموت خنقاً، لأن على الساحر في بعض الأحيان أن يكرر قراءة التعاويد 200 مرة وإن أخطأ فلن يأتيه شيء، حتى ولو رقص الساحر على السُّلْم وعلى أطراف أصابعه.. والخلوة أصعب أحياناً.. وبعد أن تجتاز اختبارهم تجده أمامك على شكل طفل بريء مسالم جداً يبتسم ومؤدب، ولكن لماً تستهين به محتمل جداً أن تفقد النطق ويصييك الشلل أو أي لعنة من شأنها أن تفتاك بك.

- إذن، عِمَّاه دعني أجرب، فلا ضير من ذلك.

حدجه السيد بنظرة حادة، امتلاً حنقاً وترهياً.. اهتزت لها فرائص حمان هلعاً من نظرة عمه الغاضبة له، والذي رماه بنظرة مسح بها أجزاء جسمه المكتنز في جلبابه الفضفاض، كقربة هائلة، لم ينبس بشيء، وفك في صمت،

اتسعت أفكار حمان وبدأ يُفكّر بطريقة لم ترث لها أُسارير السيد، بل اعتبرها الأخير بأنّ حمان قد أعلن الحرب، ولا نهاية لها إلا بالموت.

وللسيد طموح كبير وواسع ما زال يرنو لتحقيقه، يتسع ولن يقف عند حد معين، لم يفكّر قط أنّ ما يقوم به ربما يفتح عليه نيراً ربّما تكون صديقة أو نيران أعداء يتربصون له بأنّ يهفو أقلّ زلة ليسلخوه بلا رحمة.

لكنه أيضًا يملك قريناً من الجن، استحوذ عن طريق السحر على قلوب أهل قريته، بل حتى استحوذ على قلوب من كبار رجال العشائر الذين يتواجدون إليه زحفاً على الركب.. ما أن يصلوا باب داره حتى يبركوا ويبدأ الزحف أو الحبو إلى داخل داره، بعد أن يُفتح لهم الباب المقدس.

لن يضحي بكل هذا من أجل تحقيق حلم حمان المريض، سيفكر بطريقة لکبح جماح طموحة الجنون.. هذا الثور الجاثم على صدره منذ سنوات طويلة يجب أن يُردع.. ولكن اللوم ليس على حمان.. بل الحق عليه لأنّ زوجه ابنته الوحيدة، ظاناً بأنّ حمان سيكون ساعده الأيمن مدى الحياة، لا أن يُفكّر في إزاحة السيد، لكي يحقق طموحة القذر على حساب الغير.

غرق في تفكيره المعهود حتى أيقظه صوت الثور الجالس أمامه:

- سيد هل سمعت ما قلته؟

التفت إليه السيد بصمت بالغ فقط اكتفى أن يدير رأسه نحو حمان محتفظاً بثبات جسده وأعصابه، كالصنم جالس يطالع حمان.. الآن..

الهمس بدأ يطّن في أذنيه، القرین يحضر في أي وقت يشاء ولا يمنعه أحد،
أمره الهمس أن يتلو لحمدان ما تلقته أذناه من تعاليم سيمليها القرین
عليه الآن بشأنه..

اعتلل السيد محافظاً على هدوئه، فما بجذعه نحو حمدان، رفع حاجبه
باهتمام وهمّ يقول ما يلزم قوله على ثور ابنته مقلصاً عضلات وجهه،
وقد بان أكثر جدّية الآن:

- هل سمعت بقرین البيضة؟

أشار بيده لحمدان - أن اسكت - عندما همّ حمدان أن يُحيييه، ولكن السيد
لم يسمح له كالعادة ثم واصل:
- أن يُولد لك قرین من المنبي.

التزم حمدان الصمت، ليس باختياره بل جبراً.

- منيّ الرجل يُحقن في بيضة، بدون كسر لثلا تفسد العملية.

* * * * *

حقن البيضة بمني الرجل سحر مغربي قديم، مذكور في كتاب السحر
الأسود الذي يُصيب بالجنون كل من يحاول أن يقرأه بدون دراية ووعي.

يحتاج ممارس هذا النوع من السحر أن يتمتع بجرأة وشجاعة عاليتين، ليتحدى
الطبيعة، بحقنه للبيضة من دون أن يسبب كسرها لكي لا يفسد السحر،

ثم دفن البيضة لأيام محددة كما يشير في الكتاب، وبدون تأخير يأتي الفاعل في اليوم الأخير ويجد قريناً صغيراً لا يتعدي طوله طول ساعد اليد، بانتظاره.

إن تأخر في حضوره ينقلب عليه السحر ويكون الجنـي القزم عدواً أبدياً له. وإن فكر الفاعل يوماً في التخلص من الجنـي الصغير.. عليه أن يملص رأس قرينه بدون أن ينظر إليه.. لأن الجنـي سيتمثل له بأشكال مروعة.. ليتمكن من الخلاص من بين قبضة الفاعل والفرار منه، ويدرك الكتاب أن الجنـي ما يلبث أن يعود بعد فترة قصيرة ليتقمـم من صاحبه ولن يحول بينه وبين قتل الفاعل ذلك إلا الموت.

* * * * *

الرجل مجرد أن يفكـر بأن ينتقل عن وضعه العادي إلى ساحر، فيعتبر إنساناً مجرداً من كل القيم الإنسانية، ولا يؤمن له جانب حيث يُعتبر حلـيف إبليس في الأرض، وهو دسيـسـة على وبين خلق الله، فالسـحـرة لا يؤمنون على توصيل عقيدة أو إيقـاظ ضمير نائم، لأنـهم وبصـنعـ أيـديـهم جـرـدوا من أي عمل رحـانـي، وقاموا بتـبـديلـ النـورـانـيةـ بالـظـلـمـانـيـةـ، والـرـحـانـيـةـ بالـشـيـطـانـ.

وللسـاحـرـ تـعاـونـ مـباـشـرـ معـ شـيـاطـينـ الجنـ وـ الطـوـاغـيـتـ منـهـمـ، وـجـيـعـهـمـ دـاـخـلـ دائـرـةـ شـيـطـانـيـةـ وـاحـدـةـ، وـرـأـسـ هـذـهـ الدـوـائـرـ -إـبـلـيسـ -.

وعـقـائـدـ الـعـمـلـ عـدـيـدـةـ لـدـىـ السـاحـرـ، منها التـبرـؤـ منـ عـبـادـةـ أيـ إـلـهـ إـلـاـ إـبـلـيسـ، ليـتـبـرأـ السـاحـرـ منـ اللهـ وـمـلـائـكـتـهـ وـكـتـبـهـ وـرـسـلـهـ، وـيـعـلـنـ وـلـاءـهـ لـإـبـلـيسـ اللـعـينـ.

وكما أن لإبليس عرشاً يحمله كبار الشياطين وهم ثمانية، وله مئة اسم تدخل في العزائم التي يقرؤها الساحر، وله أسرار توزيع الخدمة وهي الطلاسم، وعددها مئة، وهذه الطلاسم هي همزة الوصل لكل من يدخل هذه الدوائر الشيطانية.

يذبحون القرابين، ولا يُسمّى عليها، ويكون على نية شيطانية ويدهونون أجسامهم بدم هذه القرابين، والنجاسة.. وهي التلذذ بمعصية الله عندهم عبادة. كما تدنيس القرآن عندهم عبادة.

استطاع سيد سامي أن يحرز من خلال عمله التقدم في مجال حياته، وكان كما أراد ساحر درجة أولى.. وأن يطمح في قراره نفسه إلى الخلود، مستغلاً الدين غطاءً له، أوهم العديد بأن آل البيت هم من يلبون له طلبه حباً به لتقواه. استحوذ على عقول كثيرة، ولا يخالف الفرد إلا باسمه، ولم تكن المدارس في تلك المناطق النائية تفي غرضها بالقضاء على الجهل المسيطر بين أهل القرية.. بسبب برجمة عقوتهم منذ الصغر على معارف وأقاويل هشة للغاية، وأي فكر جديد يُعتبر لديهم كُفراً وفسقاً ويعتبر من أعداء آل البيت.

ولم يكتفي من يدعون التدين بهذا القدر من التقدم في تحريف العقول، بل ابتدعوا خرافات الأرواح التي تطوف حول المراقد المقدسة وتلتقي بالأئمة والتحدث إليهم مباشرة والبث بترهات غزت القلوب والعقول.



ثورة الجهل على العقل قامت قيامتها منذ سنين ولم يردعها رادع.

وأما هؤلاء السحرة من الدرجة الثانية، الذين يرتبطون بدائرة شيطانية وبطريقة غير مباشرة. سحرة العمل بدون العقيدة، أي الذين يُعظّمون الأسماء الشيطانية والطلاسم التي يتعرفون عليها من خلال الكتب والمكائد ويطلق عليهم المشعوذون.

* * * * *

وسحرة الدرجة الثالثة هم المنجمون - العرافون - أو الفلكيون من ينبوون بالغيب، ومن يضرب بالرمل ويقرأ الفنجان.

فيقوم المنجم بتوقع الغيب عن طريق الكواكب السيارة والنجوم وتأثيرها على الإنسان، وهو من يُين الأبراج الفلكية من: اعرف برجلك .. وإلى آخره. والدرجة الرابعة والأخيرة من السحرة:

صاحب ألعاب السيم، وصاحب من يُسمى بالقوة الخارقة، في السيرك وأكلي الجمر ومخطي الوجوه، وقاهري العفاريت.

كانت الغادتان تجلسان في مجلس القهوة بدار «حميدة» مع «صفية» زوجة - جودت بيك - الأخيرة كانت لامعة البشرة من شدة بياضها، نجلاء العينين، زرقاوين تأسر القلوب بنظرتها الرعدية، فترعد أقوى الفحول، لو ابتسمت عن أسنان ناصعة البياض، وصوت كرنين النحاس.

وشت الجلسة عن عدم رضاها على زوجها - جودت بيك - ولعبت حميدة دور المرأة التي أخذت على عاتقها حل المشكلة، بين كل رشفة فنجان وأخرى تفتح فاها وكأنها تسمع المشكلة لأول مرة، وتمسح على بطئها المتفاخ تارة بفخر، ولكن حركاتها المستفزّة لم تثر في نفس صديقتها أي ردّ فعل سلبية أو إيجابية.

صفية تعاني أيضاً من مشاكل عدم الحمل، متزوجة من سنين ولم تظفر من بعلها بوليد يعنيها عن كل شيء.

تشكو بحرقة من غياب زوجها لأيام طويلة عنها، ومن التغيير الذي طرأ عليه فجأة، ثم أطربت في حزن بالغ، ولازالت الإطراف كأنها أخذت سنة من النوم،

حتى رفعت رأسها في بطء فلاح الحزن في عينيها أعمق مما قدر، ثم قالت بصوت ضعيف وكأنها تخاطب نفسها:

- تخيلي أتوسل إليه أن نزور الطبيب فيتجاهلني ويقول كله بأمر الله حتى توقف عن معاشرتي، وكأنه يعاشر غيري.

فوقع كلامها كطلقة نارية على نفس حميدة، فإذا بكل شيء حولها يتغير ويتبدل سريعاً، ويكهر الجو لو لا حميدة بادرت بالإسراع وغيرت مجرى الحديث:

- لا عليك سأفكّر بحلّ الحمل، أعدك بذلك.

- كيف؟

- الكيف اتركـيـه عـلـيـ، دعـيـنـي أـضـعـ حـمـيـ بـسـلـامـ وـيـعـدـها لـنـ أـتـوـانـيـ
عن مـسـاعـدـتكـ.

صفية ستعمل المستحيل لكي تظفر بطفلي، وحميدة يلمع الانتقام بين عينيها لتنتقم من المرأة التي خطفت عشيقها بلمح البصر.

كانت صافية كلما تكلمت أمام حميدة.. تستحضر في ذاكرتها أوقاتها الجميلة مع زوجها.. تتكلم بحنان عنه ومعاشرته اللذيدة لها، ودّت الأخرى لو تلطمها، ويا ليت قذيفة تصيبها على رأسها بغتة فتتشرّها إرباً إرباً، وتثار بها أفعى الثأر.

كان يتوهّج في عينيها بريق مخيف تطاير من تحت جبهة عابسة مكفهرة
تجمعت في أحاديدها نذر الشر والوعيد، كانت تودّ وهي تغفر فاها
لتطلق قذيفتها.

ولكن لسانها لم يتحرك، **نُفَضِّل الاستماع**، التصق لسانها بسقف حلقتها،
كأنما جذبها إليها مخها الذي لم يعمه العناء عن البلاء، كانت تفرغ غضبها
في فنجان القهوة بالعصر واللعن في داخل نفسها تارة، تتصنّع ارتشاف
القهوة وهي تستمع بآذان صاغية ما يفعله جودت بصفية وكيف كان
يعبر عن ودّه وهو يداعبها قبل الجماع، تتظاهر بالابتسامة والحدّاد يكاد
يحرّقها.. ودّت لو تلتقي به لتخنقه على السرير.. الكذاب والأفاق كيف
يقول ويحلف لها بأنه لا يلمس زوجته ولا يشعر بها..وها هي زوجته
تحسّر على ما مضى من علاقات حيمّة.. هنا تعيد الفنجان إلى الطاولة
وتصب قهوة أخرى وتستمع بغيظ النساء إلى صفية.

اللحظات الرهيبة كيف ستتمّ مع صفية؟ كسرعة الزلزال الخاطف الذي
يشعر فيه الإنسان بأنفاس الموت تتردد على وجهها لحظات ثم يعود كل
شيء لمستقره.

كانت تلقي عليها نظرة مظلمة بالملقاً وكان الأريكة ترتج من تحت قدميها
على أثر نبضات قلبها، اقتحمت صفية صلب الموضوع وهي تحدّث حميدة

ما لا تطيق سماعه، تحدثها عن المعاشرة الجسدية، الحميمة، كيف لم يستغفِ لحظة ساعتها من دون أن يضاجعها بحمية الزوج الهائج كالبحر عندما يكتسح الرمال، ويضرب الساحل بدون موعد. وكيف أخبرها أنه مولع بها حد الجنون، ويتوقد إلى مضاجعتها من الخلف فرفضت هي بدلال، وجعلته يهيم في حلمه دون أن ينال مطلبه.

- مجرمة.

رددت حميدة بحقن في نفسها.

رنت إليها صفية بسمة لطيفة وقالت برقة وإغراء:

- لم يطأني أحد من الخلف.. إنه أمر قاس.

ثم فجأة تراجع رأسها في قلق كقطة أقبل نحوها كلب:

- وكيف سيطئني وسلامه كنصف ذراعي، سوف أجُن من ذلك.

شقت بضمكتها روح حميدة التي ارتعدت منها، ودّت لو انقضت على رقبتها وتكسرها.. ولكن اللقاء الأحق الذي جمع بينهما لا يتنهى..

فواصلت صفية الكلام.

استدعي مدير أمن البصرة - جودت بيكر - إلى مكتبه الفخم وأبلغه بالانتشار غير الطبيعي لظاهرة السيد سامي التي تفشت في ناحية الهاشمية - شمالي شرق محافظة البصرة - واتسعت شيئاً فشيئاً لتكون ظاهرة محلية بين محافظات الجنوب العراقية.

حيث يسود بين الناس إشاعات قوية بأنه ولد من أولياء الله وسماع أوامره وطاعته هو من طاعة الله، ولربما سيدعى بعد فترة بأنه «المهدي المنتظر» ويُصدقه الكثيرون وسيؤيدونه.. لأنها مناطق بدائية وانطلاقاً للخيل الدينية عليهم أمر سهل للغاية تحت غطاء ديني بحت. وكان المدير يتطلع على صور السيد ثم ما لبث أن بسطها أمامه قبل أن يدخل عليه - جودت بيكر - وما إن حضر الأخير حتى زاد مزاج المدير تعكراً أكثر.. وسمح للضابط الشاب بالجلوس.. لملم الصور بامتعاض وازن عاج بانا بوضوح على ملامح وجهه.. وأعطتها إلى جودت ليسمع منه تفسيراً حول الانحلال الأمني الواضح في منطقته كضابط أمن يدير عمل معاونة أمن الهاشمية.

- أكثر من سنة وهذا الغراب العجوز ذو العمامة السوداء يتسلط على الناس، وحضرتك نائم، أين رجالك وأين تقاريرهم يا أفندي.

قال الكلمة الأخيرة بسخرية باللغة واضحة ولكن بهدوء الرجل الحكيم، ازدرد الضابط ريقه بصعوبة وخرج قائلاً بحشرجة:

- سيدى أنا أتابعه منذ مدة ولكن لم يصدر منه شيء يدل على أنه يقوم بنشاط معاد للملكة أو كلمات سيء إلى جلالة الملك المُعظم.

- يا سيد جودت.. أيها الضابط.. النشاطات المعادية ليست فقط أن تقوم على شكل سياسي مباشر، الدين أكبر نافذة للمساس بالسياسة وأمن البلد، هؤلاء الدجلة هم أذىال دول تريدها الخراب وتعارض قيام مملكتنا، وبمرور الزمن سيكونون أمراء تنظيم وسيكونون مع الوقت لتطيع بنا.. الدجلة المتدينون يؤثرون على عقول تلك المناطق النائية، لأن إيران تتغلغل في جنوب العراق منذ أمد طويل، الشاه علماني ولكنه يعلم كيف يدخل تنظيماته ويلاعب بعقول الرجال، هم يزرعون عيوناً ونحن نقلعها بمرور الأعوام.. لم أستدعك لأنني عليك محاضرة يا سيد، ساعة من الزمن أريده هنا، أريد التكلم معه، هذا الواقع لا أعرف كيف يفكر وإن تركناه فهذا ليس لصالحنا.. نفذ الأمر الآن.

وما كان من جودت إلا أن وثب متتصب القامة مشدود الذراعين إلى الأسفل قائلاً بصوت مليء للأمر:

- قام سيدى، سيكون عندك اليوم.

غادر المكتب قلقاً.. ولكنه كيف سيقدر بجلب شخصية أثّرت على منطقة بكمالها؟ لا أحد يجرؤ على ذلك لا من قريب ولا من بعيد..
كيف يرفع عينه ويلصقها بعين السيد الذي يغدقه بالخيرات، علاوة فالسيد تغلغل وأصبح كإله على الأرض ويُقدّس بين الناس أكثر من أي شخصية دينية أخرى.

فكيف سيقبض عليه.. ويحفر بيديه نهايته كضابط، لأن أهل القرية لن يرحموه على جريمته، وسيلقي بنفسه في أتون المعركة بدلاً من أن يعيش بسلام بينهم ويتمتع من خيراتهم.

ثم غغمغ وهو يفتح باب السيارة ببرات نمت عن اليأس:

- والهدايا التي تأتيني كل يوم؟ وشيوخ المنطقة الذين عاهدتهم على حماية مصالحهم في المنطقة؟ مجنون حضرتك أئها المدير.. ولكن لك ما تريد.
تنهد بحيرة مسموعة وقلق فإن لم يتصرف بحكمة في هذا المأزق العظيم، فستكون حياته في تهلكة إلى ما شاء الله.

لن يستطيع أن يعقل السيد بنفسه، فهو لا يريد أن يفتح على نفسه نيراناً صديقة من العشائر الجنوبية المؤيدة للسيد، والأفضل إرسال أحد الضباط لإتمام المهمة ذلك أسلم حل.. وإن تأزمت الأمور فسينكر علمه بالأحداث ويكون في مأمن من شر الأهالي والشخصيات العشائرية ورجال الدين.

وفعلاً كلف جودت ضابطاً شجاعاً لهذه المهمة.. شاب في الخامسة والعشرين قوي البنية يمتلك ثقة عالية في النفس، فاغتبط بدوره لإناطته بهذه المهمة من قبل الأمر.. جودت بيـكـ الذي طالما انتظرها بفارغ الصبر، وهو إلقاء القبض على دجال استولى على نفوس الناس بشعوذاته بمكر ودهاء.

فـسـلـكـ النـظـامـ هـنـاـ مـنـتـشـرـ..ـ وـلـكـ مـنـ سـيـظـفـرـ فـيـ النـهـاـيـهـ؟

فلا قانون يردع هذا السيد، لأن لا أحد من رجال الدولة فـكـرـ بـأـنـ يـرـدـعـهـ، على العكس هناك من تهاون معه وباع نفسه لعطايا السيد المـغـرـيةـ.ـ اـشـتـرـواـ الدـنـاءـةـ وـبـاعـوـاـ القـانـونـ.

الناس باتت تؤمن به أكثر.. تحتفظ بصوره كـرـجـلـ مـقـدـسـ..ـ مـنـوعـ لـمـسـهـ دون وضوء.

تحرك غضبه الباطني وسرى في شر اين دمه.. يكاد أن ينفجر من شدة العنف على السيد المُقدس.. إنه يؤمن بقتل رجال الدين كما فعل أتاتورك عند إقامته الدولة التركية العلمانية الخالصة.

نعم هم من يقصدهم الله في القرآن - المفسدون في الأرض - .

وكانـت في هذه اللحظة قد انطلقت ثلاث سيارات، مفرزة مكونة من عشرة أشخاص وكانوا متحفزين لأي طارئ.

رجال الأمن من بينهم الضابط الشاب كانوا يرتدون ملابس مدنية، حيث كانت سياراتهم تمر بسرعة خاطفة من بين بيوت الطين.. ليولـد الرعب في نفوس الأطفال والنساء ويُـهـرون للاختباء في بيوتهم، بينما تختلف السيارات المسرعة وراءها عاصفة رملية هائلة.. قبل أن يصلوا إلى بيت السيد وتهـدـأ العاصفة الرملية التي خلفتها عجلات السيارات.

توقفت السيارات بشكل عشوائي على مقربة من بيته، كانت الدار مزدحمة بالزائرين يتظرون في الخارج، بسبب أن عدد الأشخاص داخل الدار لا يسمح بدخول آخرين، الزائرون كانوا يتظرون في طابور طويل ليحصلوا على الإذن ويدخلوا على مولاهم العائد.

شخصيات حاضرة في ديوان السيد، من وجاهـاء عـشـائر، ومن طبقات مختلفة من الشعب، ويـلـاحـظ ذلك من خلال عربات الخيول الفاخرة التي تنتظر أمام بيت السيد. كل من جاء يـقـابـله إما ليـثـ شـكـواـهـ إـلـيـهـ ويـتوـسطـ لدى السيد لنيل رضا الله والتبرك عنده، أو يـزـورـهـ حـبـاـ لـشـخصـهـ كـرـجـلـ

دين مبارك به ولينفتح السيد بالعطايا والمدايا، أو سعياً للحصول على حرز حسب الطلب ونيل رضا آل البيت في نفس الوقت.

عندما رأى الجمهور حضور مفرزة الأمن تنبؤوا شرّاً من مقدمهم، فمثل هذه الزيارات عادة لا تنتهي على خير أبداً، بل يضمرون الشر كعادتهم على رجال الدين، ولا سيما أن أهل القرية يعلمون بأن السيد سامي بات مصدر قلق للدولة.

وقد حان الوقت للجهر بالعداء لهذا السيد. ولكن هيهات ثم هيهات، تكافدوا ليكونوا جداراً يمنعون رجال الأمن من دخول الدار.

فاختلطت تياراتهم، الصغير والكبير والفقير والغني معًا لحماية موالهم. ساد الصمت المخيف الذي ينذر بشر لا حدّ له سوى الموت أو الانسحاب. وقف الضابط أمامهم بحقن، وأخذ يحدّ جهنم بنظرات غاضبة على هذا العصيان المفاجئ. صاح بهم بلا جدوٍ، سمع صدى صوته يتلاشى مع الجلو، فأدرك أنهم مجتمعون على عقيدة يصعب تفريقها حتى ولو بالسلاح. حاول أن يجرب معهم أسلوب الحوار المتعدد ففشل، ضحكوا عليه وسخروا من سماجته.. قالوا له - روح العب غيرها.

أراد أن يقنعهم بأن السيد سيحلّ ضيفاً كريماً ويكون بأمان ولا داعي للقلق.. وأن ما يفعلونه ضد شرعية المملكة وعصيان مدني يُعاقب عليه القانون الملكي، ولكنه لم يجد غير زيادة في غضبهم من خلال الأعين الصامتة التي تقدح شرّاً ونقماً على رجال السلطة.

حتى قطع الصمت صوت صرير وانفراج الباب الخشبي ليظهر السيد من خلفه بهدوء.

رمأه الضابط بنظرة تدل على الحقد.. نظرة متقدمة بعض الشيء، لا معنى لها سوى الهجوم والانقضاض على هذا الشيطان.. ولكن لمن يستطيع فعل أي شيء بسبب الأهالي الذين يتزايدون شيئاً فشيئاً لحماية مولاهم.

وقف الولي الآن بمبسمه الطويلة خلف الناس، هادئاً لا يصدر صوتاً سوى صوت الأصابع التي تناجي المساحة.. بينما الضابط كان يقذفه بنظرات ثاقبة ومرية وقد عبس وجهه وتطايرت من قسماته نار الغضب من خلال صفحته المكفهرة، ابتسم السيد فجعل يردد بصره بين الضابط وبين الجموع بهدوء ظاهر و默د دفين.

انتبه الناس إلى الضابط الذي حاول اختراقهم ولكن عبّا يحاول، سدوا الطريق بأجسادهم ولوّح من كان يحمل سكيناً أو عصا بأيديهم عالياً، كإزار للضابط على أن ما سيقوم به لن يمر بسلام.. سيدافعون عنه حتى لو وصلت الدماء إلى الركب.

دفع الضابط أحدهم ليخترقه نحو السيد وما لبث أن صاح أناس لا حصر لهم:

- يريد اعتقال السيد امنعوه..

ومنهم من ردّد: اقتلواهم.

وسرت في المتجمهرين حركة عنيفة، حتى أسرع رجال الأمن لحماية الضابط، الذي مالبث أن أمرهم بإخراج أسلحتهم، تتم على مسدسه ثم صار يصبح بحزم كأنه استمد شجاعته من وجود سلاحه:

- إن لم تعدلوا عن غبائكم فسوف تندمون، أنتم تتحدون القانون، أكررها لا تتغابوا وستشقوا طوال حياتكم على تصرفكم.

سرت في المتجمهرين هذه المرة حركة عنيفة، فأقبل متهمون من كل صوب ملوّحين بالعصي والسكاكين والماكين حتى ارتعد الضابط وانسحب بين مجموعته بحكمة، وأصبح بينه وبين الغاضبين مسافة طويلة.. فرسع عنه بعض الحماسة التي كان يتمتع بها حين أتى ليعقلل الرجل.. ولكنه نجح أن يجمع جأسه ويصمد أمام هذا التيار العشوائي من الناس الغاضبين، دارت عيناه فيها أمامه يبحث عنه، فلمح وجه غريميه السيد.. الذي وقف بثبات وشجاعة خلف الحشد، كانت عينا الضابط تفوران بالغضب والبغضاء، حتى تقدم بحركة غريزية وصوب مسدسه وأطلق رصاصة نحو الهواء وهو يصبح بصوت جهور:

- الرصاصة الأولى ستكون في السماء، أما الثانية فسأصوّبها في قلب أحدكم. ارتعد البعض.. وثبتت الأغلبية على عنادهم، ولكن في النهاية لم يجد الضابط من المتجمهرين من يتراجع عن عناده، فاستفزّه تصرف الناس.. فغضب بشدة حتى ساد صمت فجأة.. حتى قطع السكون صوت السيد:

- دعوه - صاح بحقن - هؤلاء جاؤوا يقصدوني فدعوني أتفاهم معهم قبل أن تُراق دماء أبرياء.

تجاوיבت في أرجاء المكان دمداً غاضبة، تعالى الهاشمي هنا وهناك «ليسقط أعداء آل البيت» وصاح غيرهم «أدبوا أولاد الزنى»، «الكفرة أحفاد زيد».

عندئذ تقدم السيد شاقاً صفَّ الحشد الغاضب، واثق الخطى ثابت الإرادة، رغم محاولات سارية منعه من التقدم بجذبها وشدها للذراع والدها الذي نحْنِي سارية جانبياً.. ظلت تمسك به، حتى تجاهلها ونفُض يدها عنه.. كانت تحاول منه من التقدم ولكن محاولتها لم تثمر في صد والدها عن التقدم، فسحوا له الطريق، وتقدّم نحو الضابط بعينين ثاقبتين.. تُركزان على وجه الضابط بحدّة، رمشت عيناً الأخير وكأنه ينظر إلى شعاع الشمس، فرك عينيه وما إن كفَّ عن الفرك وفتحهما.. حتى انتفض من مكانه عندما رأى السيد ثابتاً أمامه كالصنم يثقبه بنظرات جليدية، هنا تغيّر الموقف، بادره السيد بقوله:

- أنا جاهز لأحضر التحقيق أيها الضابط.

- أ... أ.. السيد المدير طلبك وعلينا تنفيذ أوامره.

- حسناً ما دام هذا ما يطلبه سيدُك فأنا قادم.

لكن الغضب بلغ بالناس مداه، شكلوا على هيئة نصف حلقة حول الاثنين وهم يتدافعون بالمناكب وكأنهم يتأهبون للهجوم كأكلة لحوم البشر عندما يثيرهم قطعة لحم نيئة.

كانوا يتوعّدون الحكومة والضابط شراً.. في حال لو حصل مكروهٌ لولاهم، فأطلقت أصوات السيارات عالياً كالهدير قبل أن تنطلق مُرحةً بالنصر.. والناس يهتفون ملوّحين بأيديهم:

- علي وياك علي.. علي وياك علي...

وبعزم لا يُقهر رفع يديه وهو يزعق بالجمهور قبل أن يستقل السيارة:

- اسمعوا يا شيعة علي الكرام، هو عبدٌ مأمور، والمدير له كل الحق أن يتحقق معى، ولا تنسوا أنهم علمانيون وعقولهم ليست بمستوى عقولنا التي كرّمنا بها الله بحب الدين وآل البيت، ولا بد أن هناك من أبلغهم بأنني مشتبه به، وعليه سوف أذهب وأقابل المدير وأحل المشكلة ولست قلقاً لأنني أعرف أنكم لن تتركوني. «قال الجملة الأخيرة وهو يحدّج في عين الضابط متعمداً كرسالة تحذير».

بهذا أنهى حديثه الخطابي، حتى ساد الصمت المريض، وأمر السيد بالناس أن يفتحوا الطريق لكي يتسلّنى للسيارات التحرّك. الصمت وحدهُ الطاغي في هذه الساحة، وأيضاً طغى الصمت الثقيل على الضابط بعدما كان مليئاً بعزيمة الرجال، ولكن لم يكن يتصرّف مدى خطورة هذا الرجل ومدى استهانة الأهالي لإنقاذه.. حينها أدرك الضابط بأنه أمام رجل ذي نفوذ والوقوع عليه مؤذٍ.. كالرجل عندما يقع على كومة حديد وتتكسر أضلاعه.

- هيا أيها الضابط أنا مستعد.

وببطء غير معهود أمر الضابط مجموعته بالمعادرة.. متوجهين نحو مقر مديرية الأمن العامة في هدوء غير مرحب به من قبل الجميع.

كان المساء يرتحف في خطوات حاسمة غاشيًّا الطرقات والأزقة والمآذن والقباب، حين أحضر السيد إلى المديريَّة، وبالتحديد إلى غرفة المدير.. التي كانت محاطة بهالة من الأضواء زادت من المكان رهبة وجمالاً.

ولعل المدير لم يعدل بسروره بهذا المساء، الذي قلَّ أن يُرى بها مسروراً، إلا زهوه بإحضار سيد سامي له، كأنَّه صيُّد طال انتظاره.

مثل السيد أمامه، لم يسمح له المدير بالجلوس حتى على الأرض، وكأنه يتلذذ بإهانة السيد، فلم يرُد حتى على تحية الأخير له.. بل قذفه بوابل من الأسئلة التي لا حصر لها.. ففوجئ بها السيد ولكنَّه أجاب على كل شيء بذكاءٍ وأدب.. ويدون أن يثير أيضاً غضب المدير العارم عليه، يتلمس أثر ردة فعل أجوبته في وجه المدير، ويتهيأ للسؤال الأقذر.. فلييس لهؤلاء الأوغاد سؤال شريف ومحدَّد.. الكل أولاد ذنبي.. حتى هذا الثور الكبير برأس التيس لا يقل عن السفلة بشيء.

- إذن ما رُوِّج عنك تعتقد أنه إشاعة.

- سيدى المدير أنا معروف في الها والله وأنحائه.. وتقريباً أكثر مناطق جنوب العراق يعرفونني.. وزياراتهم شيء طبيعي لي.. ومثل هذه المظاهر تراها حاضرة في النجف وكربلاء، فما الغرابة أن يكون بيتي مركز زيارات الأحباء والمخلصين؟.

شد المدير قوس حاجبه ثم قال متحجاً:

- مظاهر عادية؟ صورك تُباع في الطرقات وفي الدكاكين.. الناس تحلف بك، وقد وضعوك في منزلة النبي وتقول مظاهر عادية.

أحنى السيد رأسه مغمماً:

- أستغفر الله .. وما بيدي أفعله لهم.. أمنعهم سيدى المدير فأنت القانون هنا وتعرف أكثر مني بهذه الأمور، هل تظن بأنني سعيد بذلك؟

- بالطبع أنت لست المسيح.. ولا حتىنبي، ولكنك انتشرت بينهم كمراجع ديني وتكاد أن تبلغ مراتب أعلى.. من يدرى.

هنا احتدّ صوته واشتعل الغضب بداخله شيئاً ما، ولكن السيد كان يحافظ على هدوئه وابتسامته وكأنه يتكلم مع صديق قديم.. وتعامل مع الموقف بأريحية تامة:

- كل شخص حُرّ في تقديره من يجلّ ويحترم ما داموا لا يؤذون أحداً.. إذا كانوا يريدون ذلك فهذه هي درجات عقولهم.. إنهم مُخِّرون.. لو كانت

لديهم ذرّة عقل لأيقنوا أنّي بشر عادي والواسطة غير مطلوبة بين العبد وربه.. وأنّا نفسي لا أضمن إن كانت دعوتي مستجابة أم لا، وفي نفس الوقت لست ساحراً أو أفالاً، أنا رجل بسيط لا أبغى سوى العيش الكريم.

داخل السيد سرور ماكر، لاحت في عينيه الحكمة والدهاء، ركز في عيني المدير بهدوء وأدب حتى احتار المدير في اختيار كلامه، فكلام السيد منطقى ولا شيء يدعوه لأن يعتقله أو يهينه، ولربما بمرور الزمان ستنتجلىأشياء لا يعرفها بعد.. ولكن كل شيء في وقته مُستحب.

لاذ بالصمت الآن، فمضى يسأل والسيد يجيب بذكاء.. وينجو من فخ الأسئلة بمهارته، وكان يجيب بلا تلاؤ وبكياسته المعهودة، رغم الحقد الذي يهيج بداخله على المدير ..

ال الحديث دار في جو مشحون، مع العقيد حاجم الذي لا صلة له بالدين لا من قريب أو من بعيد، كان شعاره:

«الخمر والنساء».

أما الدين ورجاله فكان يمقتهم بشدة، وعندما حلّ سيد سامي عليه في هذا المساء المادئ، كان في ودّه لو لديه صلاحية إعدامه.. بل وإعدام كل رجال الدين على الفور.

فجأة سمح للسيد سامي بالجلوس.. تغيير موقفه وأظهر بعض اللّين معه؟ رغم ما يحيش في صدره من حقد عليه.. وما دام الإعدام مستحيلاً

فلماذا لا يحاول كسبه إذن، ألف صديق ولا عدو واحد، فهو قد خلق لنفسه هالة وقدسيّة عظيمة بين الناس.. وليس بعيد أن تتفوّق قدسيّته بعد فترة من الزمن على قدسيّة الملك نفسه.. ويتحقق الانقلاب الديني على العلمانية فتفسد الدولة ويتوه العباد.

وسيسمعه الجميع .. وستكون مناطق الجنوب تحت تأثير حركته الدينية وسينجح في تجييشهم لو أراد ذلك.

وهكذا سينجح في قلب الشعب على الحكومة الملكية بالتعاون مع جهات معادية.. فهناك أعداء يتربصون لمستقبل العراق ولا سيما أن الحرب الباردة قائمة على الملك.

* * * * *

رجال الدين في العراق أغلبهم يُعدّون مرجعيات، ولهـم كلمة حادة كالسيف يغير الواقع الجنوبي للعراق في ليلة وضحاها.

لو يعقل هذا السيد الآن، فهذا سيكون الغباء بعينه.

حينها سيخرج أكثر الجنوبيين، لنصرته، فهو بعينهم «السيد سامي» - قدس سره - حفيد آل البيت كما يدعون، وتركه بلا مراقبة هو الغباء بعينه، ولا سيما أن عيون الأعداء يتوجهون بهذا مظاهر باتت تسود في أرجاء المملكة ويسعدون كل ما يخدم مصلحتهم.

اتقاءً لتكدير المدير قال السيد:

- سيدتي، أرجو أن تُعلمني إذا أنا أخطأت شيئاً، وجلّ من لا يسهو، فالزائر الذي يأتيني إما يأتي لفتوى أو حل مشكلة من مشاكل الحياة التي تقدر صفوهم.. ويعلم رب السماء أني كنت منصفاً في كل شيء وخداماً أميناً للكل، ولا أطمع إلا بالأخرة.

لاح في تقارب حاجبي العقيد حاجم صيغة مناسبة لأول مفاوضة حتى قال دون تردد:

- حسناً، ولكنني أريدك في الوقت نفسه أن تكون عيناً على أمن الوطن وعيناً ساهراً ضد كل من تسول له نفسه المساس بشخص الملك.

رفع السيد حاجبيه وسؤال:

- كيف لا.. وهل تعتقد أني لا أفكّر بذلك؟ ولكن سيدتي المدير هل هناك شيء ما أضرّ بأمن المملكة؟

- لا، والأمن موجود ومستتب.. ولكن كما تعلم فالغرباء يستغلون الأهوار هرّباً من شاه إيران ويدخلون أراضينا بشكل غير قانوني.. نريد منكم توجيه أتباعكم بإبلاغ السلطات عن هذه الخروقات.. وتبلغون أيضاً الجهات الخاصة كل شاردة وواردة من شأنها أن تقع.. وأن تبلغ حوزاتكم عن رجال الدين المندسين والقادمين من إيران إلى المملكة بدون أوراق رسمية.

- تأكد سيدى المدير بأننى سأكون أول من سيلغ عنهم فأنا ضد كل من يحاول الإساءة للمملكة.

بهذا الحديث ختم اللقاء وغادر السيد بعد أن مد يده للمدير الذى صافحه بدوره.

* * * * *

كان البلد عند تأسيس الإنكليز الدولة العراقية الحديثة غير مستقر تماماً، بسبب ثورة العشرين التي قامت بها عشائر الفرات الأوسط وبدفع من رجال الدين من أهالي الجنوب بأنفسهم، فوقفت القيادات الدينية ضد أغلب الإجراءات الضرورية لبناء الركائز الأساسية للدولة الوليدة، الفتية، وذلك باتخاذهم مواقف متشنجة ومتشددة ضد السلطة، فوقفوا ضد المعاهدة البريطانية - العراقية التي ما كان بالإمكان الاستغناء عنها في تلك الظروف القاهرة، وإلا لقامت تركيا بإعادة احتلال العراق، أو على الأقل إلهاق الموصل بها.

وفي عام 1922 نشر المجتهدون من رجال الدين في جنوب العراق فتوى عن الانتخابات ورد فيها:

«صدر منا تحريم الانتخاب في الوقت الحاضر لما هو خفي على كل باد وحاضر، فمن دخل فيه، أو ساعد عليه، فهو كمن حارب الله ورسوله، وأولياءه، صلوات الله عليهم أجمعين».

وقد طرد الملك فيصل الأول وقتها شيخ الشريعة الأصفهاني وأية الله النائيني والخالصي وكبار المراجع الفرس المشاغبين من النجف عام 1922 إلى قم.

حيث لم يوافق جلالـة الملك على عودتهم حتى طلبوـا العفوـ عام 1924، فسمح لبعضـهم أن يعودـ شـرطـ اـحـتـراـمـ القـانـونـ.

وكانـ منـ الضـرـوريـ لـلـمـلـكـ فيـصـلـ الـأـولـ أـنـ يـفـعـلـ ذـلـكـ فيـ بـدـاـيـةـ عـهـدـهـ لـتـركـيـزـ اـحـتـراـمـ الدـوـلـةـ وـالـقـانـونـ.

وـشـكـلـ تـأـسـيسـ العـرـاقـ الـحـدـيثـ لـمـوـقـعـ إـيـرانـ فـيـ الـخـلـيـجـ الـعـرـبـيـ وـلـمـصـاحـهـ الـاـقـتـصـادـيـهـ فـيـ الـمـنـطـقـهـ توـتـرـاـ كـبـيرـاـ.. وـسـعـتـ الـحـكـومـهـ الإـيـرانـيـهـ دـائـماـ إـلـىـ الحـفـاظـ عـلـىـ تـأـثـيرـهـاـ فـيـ هـذـاـ الـبـلـدـ، وـتـعـكـيرـ الشـؤـونـ الدـاخـلـيـهـ الـعـرـاقـيـهـ.

وـالـحقـ أـنـ إـيـرانـ كـانـتـ تـحاـوـلـ باـسـتـمـرـارـ إـضـعـافـ الـعـرـاقـ وـتـتـمـنـىـ لـوـ تـجـهـضـ أيـ مـحـاـولـهـ لـتـأـسـيسـ جـيـشـ وـطـنـيـ عـرـاقـيـ.

وـفـيـ عـامـ 1925ـ رـبـطـتـ الـحـكـومـهـ الإـيـرانـيـهـ اـعـتـرـافـهـاـ بـالـعـرـاقـ بـقـضـيـهـ حـمـاـيـهـ الـعـتـبـاتـ المـقـدـسـهـ لـكـنـ عـاـمـ الزـمـنـ وـالـدـعـمـ الـبـرـيطـانـيـ كانـ ضـدـ إـيـرانـ.

وـهـكـذـاـ كـانـ جـهاـزـ الـأـمـنـ قـلـقاـ مـنـ ظـهـورـ أوـ صـعـودـ شـخـصـ قـدـ يـكـونـ مـوـلاـ مـنـ الـغـرـبـ أوـ مـنـ أيـ جـهـةـ أـخـرىـ معـادـيـهـ لـتـغـيـرـ مـسـارـ السـيـاسـهـ فـيـ الـعـرـاقـ وـرـبـطـهـاـ بـالـدـيـنـ.

- حسناً كل شيء يبدو طبيعياً، بدأ التمدد.

قالت القابلة، كانت امرأة جميلة قصيرة القامة ونحيفة، ترتدي رداءً طويلاً، وكانت حميدة تحفي وجهها بين الوسائل مع كل تقلص، لكنها لم تكن تبذل أي جهد، كان الاضطراب سائداً فأيقن «رفعت بيك» من وجوب إحضار الطبيب.

الدقائق تمر ببطء مثير للغيط، لا يسمع سوى صراخها وغمغمات خافتة، كان «رفعت بيك» يسأل الخدم فيما لو أن سائقه وصل مع الدكتور أم لا؟ وفجأة وبعد أقل من ساعة تقريباً سمع أحد الخدم ينادي من باب القصر:

- بسرعة لقد وصل الدكتور.

يدخل الدكتور مسرعاً، أخذ رفعت بيك على عجل ليقوده إلى غرفة النوم، ثم قال رفعت بيك وهو يلهث من الاضطراب، كفريسة هياج غريب: - لقد بدأ الأمر يا دكتور.

- هل تشعر بالآلام؟

- منذ أكثر من ساعة، كل دقيقتين.

و قبل أن يدخل الدكتور نقر الباب بتفاصيل أصابعه قبل الدخول إلى غرفة النوم التي تتوارد فيها حميدة.

بصوتٍ مختنق أجبت إحدى الخادمات:

- أدخل.

دخل الدكتور مسرعاً وبقي رفعت ييك في الخارج ينتظر، بينما وجه زوجته في الداخل يتخلص من جديد، جلس الدكتور على كرسي خلع الأحذية، عندما سمعها تشتكى أدار وجهه لها:

- اضغطني.

- لا أستطيع يا دكتور.

نهض الدكتور من مكانه ثم قال «رأس الطفل هنا، إنه صغير».

مرّ أكثر من نصف ساعة ولم يتغير المشهد والقابلة تحاول جهدها لكي تخفف عن حميدة تعاستها و بجانبها الخادمتان.

انتابها الألم فقال الدكتور:

- اضغطني بقوة.

تقلىص وجهها، لكن عندما اخفيتى الألم، بدت متوتة وكان صوتها واهناً، ترددت حالتها وبدأ القلق بالتصاعد.

بعد ساعتين وبالتحديد - 12 - صباحاً كان التمدد مكتملاً بالفعل والطفل لا يخرج، وحيدة تصرخ ولكنها ما زالت لا تُسمِّ من جانبها بأي شيء لكي تكلل العملية بالنجاح.

عندما اخفيتى رأس الصغير من المخرج، وبدلاً منه ظهرت ذراع صغيرة براحة يد مفتوحة مهتزة، كأنها تودع أو تحيا.

طلت الذراع هناك ساقطة ومتزللة بين ساقين حميدة المنفرجتين، خرج الدكتور عن طوره وشعوره وقال محافظاً على هدوئه:

- اللعين يقوم بالاتفاق، كأنه شيطان.

قامت القابلة بدهن ذراع الصغير بمادة أخر جتها من حقيبتها وبحركة سريعة ومحترفة وخبيرة، أعادت إدخاله إلى بطن أمه.

أمسك الدكتور بكتفي الوليد بأصبعه النحيف، وبمهارة شديدة أداره بحيث وضع الرأس الصغير مجدداً في مدخل فرجها.

أخذت حميدة تصرخ وتسب من دونوعي كل شيء، ورغمًا عنها، شعرت بقوة متراكمة في الحوض، صرخت، وضغطت بكل قوتها بينما تشجعها القابلة.

-نعم، هكذا، هكذا، أنت قوية.

وفجأة..

كانه مقدوف.

انطلقت قطعة دموية من اللحم الوردي مندفعة بقوة، تراجع رأس الدكتور لتفادي التصادم، وحطّ الوليد على الفوطة البيضاء التي تحملها القابلة بين ذراعيها خلفه بقليل.

حيدة تشعر الآن بالإنهاك، خائرة القوى.

- طفل ضئيل، يبدو قطّا صغيراً.

قال الدكتور متسلعاً بدھشة واستغراب للوليد الضيف.

حينما عاد السيد إلى داره، كان يجتهد في تهدئة نفسه المطوقة وهي تضرب بجناحيها مستريعة على حد السكين. لا قوه المئات من الحشد، بالترحاب والصلوات على النبي وآلـه، ولما انفرط الحشد، دخل الدار مع ابنته وزوجها ليرتاحوا ويجلسوا جلسة شاي عائلية ويشرثروا فيما حديث وما يجب صنعه في المستقبل.

يالامس لحيته، يفكر في صمت، تعمق في التفكير بشكل أثار انتباـه ابنته وحمدان، صـبت سارية الشـاي بشـيء من التـوتر ولكن رغم ذلك فالابتسامة لم تغادر وجهـها الجـميل، كان حـدان يتمتع بـراحة نفسـية لم يـعهدـها من قـبل، لأنـه أحـسـ بأـنـ السيدـ لنـ يـقلقـ بعدـ الآـنـ منـ مواصلةـ ممارـسةـ طقوـسهـ الدينـيةـ، وما دـامـ المـديـرـ قدـ أـطلـقـ سـراحـهـ فـهـذاـ يـعنيـ أنهـ سـيـظـلـ بـخـيرـ..ـ وـلـنـ يـتكلـفـ أـيـضاـ مـجـداـ بـمجـازـفـةـ حـقـاءـ مـنـ شـأنـهاـ إـيـذـاءـ السـيدـ وـخـصـوصـاـ بـعـدـماـ هـاجـ أـنـصارـهـ وـكـادـواـ أـنـ يـسـتمـيـتوـ النـصـرـةـ السـيدـ.

بعد أن تبادلوا أطراف الحديث.. بادر حـدانـ بـسؤالـ اعتبرـهـ السـيدـ أـحمـقـ وـبـلاـ شـكـ:

ـ عـمـاهـ، أـرـىـ أـنـ المـديـرـ قدـ اـقـتنـعـ بـأـنـكـ أـخـيرـاـ لـسـتـ مـنـ يـضـحـكـونـ عـلـىـ النـاسـ

ـ وـلـأـغـيـارـ مـكـانتـكـ المـقـدـسـةـ بـيـنـهـمـ، لـمـاـ لـأـتـمـدـ مـعـهـ حـبـلـ الصـدـاقـةـ وـتـكـسـبـهـ.

تطلع السيد إلى حمدان بنظرة يكسوها الغضب والحقن، وكاد أن يطلق من لسانه: لم تكن زوج ابتي لنكحتك أيمها الثور البري، ولكنه عدلَ عن هذا اللفظ ثم أردف:

- لو كان بيدي لمدلت الحبل إلى رقبتك وعلقتك منه في السقف، ألم تفهم بأنّ هذا الرجل هو مدير الأمن.. غبي.

ازدرد حمدان ريقه بشيء من القلق، أما سارية فاكتفت بأن تحدّج والدها بنظرة احتجاج على ما قذف زوجها من جواب غير لائق وبذيء إلى حدّ ما.. وبحضورها، فأي امرأة بالعالم ترفض أن يُسبّ زوجها من قبل أحد مهما كان.

جمع أنفاسه ثم تظاهر بالهدوء قائلاً:

- أكسب مدير أمن فاسقاً؟ هنا تطلع إلى ابنته وكأنه يريد أن يقول شيئاً آخر لحمدان فكتمه خوفاً أو احتراماً لمشاعر ابنته «وهل المدير بحاجة إلى حرز.. إنه سكير ولا يعبد إلا فروج النساء والكأس».

لم تكن إهانة السيد من قبل الضابط له وأمام الناس بالشيء الهين، عندما أخذوه من بيته كالمذنب إلى مقر مديرية الأمن، وكان فضوله يدفعه لكي يعرف فيها لو كان وراء هذه القصة «جودت بييك».. فمحتمل أنه أمر أحد ضباطه بتنفيذ المهمة بدلاً من أن ينفذها بنفسه.

بعدما صبت الشاي اقتربت منه كعادتها بهدوء بعدما كان والدها قد عاد إلى سُبات التفكير كعادته.. متوجهاً كل من حوله، متربعاً على الأريكة كالديك، مدّت يدها أمام وجهه بالشاي الذي أصبح بمستوى واحد من عينيه،

وكانها تفعل ذلك عمداً لكي تجعله يكف عن التفكير، وياليتها تعرف بماذا يفكر.. عاد إلى عالمه وتطلع إلى عينيها، قبلها في منتصف جيئها وتناولَ الكأس وشكرها بحنان.. كاد أن يأكلها في داخله، ثم عادت إلى مجلسها بتأنٌ ودلال مشرقة الوجه بابتسامة رضا، وأخذت مجلسها بجانب حدان.

دار الحديث بشكل طبيعي حتى مالت شمس الضحى، ثم مالت أكثر في سكون. وأتى المساء وتغلغل، واستتب الليل، والناس في بيوتهم واجمون من الأحداث التي جرت قريباً.. وبقيت القرية صامتة يدخلها خوف من الآتي وخوف من أن يفقدوا رموزهم الدينية مع الأيام التي لا ترحم. صالة الجلوس الآن فرغت إلا من السيد.. وكأنه بانتظار وحْي.. ولكن وحْيٌ من نوع آخر..

أو ينتظر قادماً مجهولاً.. من مكان مجهول، من بين ظلام الليل الدامس، كان واقفاً أمام الشباك الذي يطل على باحة داره الخارجية، يتأمل بغضول في الخلاء.. بالتحديد في الظلام الذي يلف السماء.

رأى وميضاً.. سرعان ما تحول إلى شبح يترافق بين ست الليل.. يستطيع أن يميز الظل من حماره، الذي يسبح في الفراغ... في ظلام الليل حيث يترافق تحت بقعة باهته على الأرض، فأخذ يتمايل وكأنه في رقصه كلهيب يشتعل .. يكاد يكون الآن أكثر وضوحاً وهو يقترب أكثر وأكثر.. من السيد.

همس الصوت:

- جئتكم لأمر هام.

رفع السيد حاجبه بفضول وتساءل بعينيه.

- زجاجة في قارورة زرقاء، تحوي شراباً يتشي شاريء شهوة خاصة لمن ينساها.. إنها لسارية تشرب منه ولكنها ستتنسى مع من جنت الإثم.

و ز و جھا؟

- پرید قریناً، فابعثه إلى قبر سندلك عليه الآن، اقتربت نهايةه فلا تقلق.

ثم هب فحيح خفيف من الهواء وكأن القرين يعلن عن اقتراب أمر هام..
وقد حان وقت إعلانه على السيد الآن:

— ما أن طأ قدماك حجرتك تجده في قارورة صغيرة لازوردية على
الخوان، اقترب موعد ترملها وموعد حبلها.

ابتسِم السيد بخبت.. تحسّس بضاعته من خارج السروال يتخيل سارية عارية، نائمة بين أحضانه، اقترب وقت الخبث الذي طلما كان يحلم بها.

ارتعش بلذة يكاد يقذف حتى صرخ خافتًا.

۱۰۰

أزكى صرخته المرتعشة بخبطه قدم، على الأرض، والقرین يراقب بهدوء.

- أخرج لأقودك إلى القبر، موضع دفن البيضة، الوقت الآن ملائم جداً.

اهتزازات الفانوس وسط شواهد القبور بدأت تبعث الحياة في الضلال النائمة، فقامت ورصدت شبحين يتسللان إلى المقبرة، السيد وقريرنه، لا أحد يرى القرير إلا صاحبه، لم يوقفهما كلب أسود يزجر أو قطة تموء حتى وصلا لفناء متواضع يكثر حوله الأشواك، همس الصوت:

- قبر أنتن رجل في التاريخ، زنى حتى بأمه عندما كان كهلاً في الأربعين، مات وهو في الثمانين بعدما بلغ ما بلغه من عظمة الغنى.

مَدَّ السيد يده في غياهـ الـجلـباب ليخرج مسـماراً ليـحـفـر على حـجـرـ القـبـرـ مجـسمـ نـجـمةـ سـداـسيـةـ.. كـعـلـامـةـ استـدـلـالـ يـهـتـدـيـ بـهـ حـمـدانـ.

هـمـسـ الصـوتـ :

- ما أن يتم دفن البيضة هنا، ستبعثه لأمر مهم إلى مكان بعيد ليعود بعد أن يتم الأربعين يوماً.. ليتخصّب البيضة.. وستجعله يتآخر على قرينه.. وما أن يتآخر على موعد ولادة قرينه سينجز الأخير واجبه ويقتله.. وستكون أنت بعيداً عن كل الشبهات، ستخلص من شخص قبل أن يخلص منك.

سكت برهة، كان السيد يستمع باهتمام شديد لتعليبات القرین:

- ستضاجع فتاتك الجميلة عندما تأمن ذلك.. وفي اليوم التالي ستكون قد نسيت من ضاجعت بفعل السائل، ولكنها لن تنسى اللذة طالما هي حيّة تُرْزق وستتمنى المزيد.. إنها لذة الشياطين ستفقدفها عليها كلما احتجنا لذلك.

سادت مرة أخرى لحظات من الصمت.. ولكن الكلام يمتد، وكانت الشهوة تتقد في داخل السيد كحيوان حبيس، وكانت الأخيلة تتولى في رأسه، يرجمح ظنًا، ويعود يرجمح آخر، ولا طائل من إيقاف ما سيقع، كالنار الموقدة تستعر وتضطرم، ومن ثم تل heb العيون وتختنق بدخانها الصدور.

عندما أذن الله للصبح الطيب بأن يطلع، كانت سارية تعد فطور الصباح قبل البدء باستقبال الزوار، الذين يتواجدون من مختلف أرجاء المعمورة من مناطق الجنوب العراقي، لكي يحصلوا على حرز الرزق أو المحبة أو الزواج .. يصنعها السيد لهم بابتسامة يجهد في ضبطها والتحكم بها، فتغالبه وتسري في ضوء عينيه وانفراجة أساريره.

* * * * *

وتجلى النهار، وأشرقت الشمس .. كان حمدان يقف خلف زوجته الرائعة الجمال، يتأملها وكأنه يراها لأول مرة، يمسح مؤخرتها بعينيه المحمومتين، انتبهت صدفة لذلك، فلم تعهد حمدان بهذه الطبيعة من قبل، تساءلت واحتار حمدان في الإجابة أيضاً، فأخبرها لربما كان سحرًا من عمل والدها ألقى بينهما هذه الغريرة المفاجئة .. ضحكا لهذه الفكرة السخيفة وتنينا لو كان هذا بالفعل ما حصل.

حدّجته بنظرة من طرف مقلتيها، مصمصت شفتتها ثم جدلت خصلة حول أصبعها بشهوة وهمست بدلال ذائب:

- ألن تعقل.. ماذا دهاكاليوم؟

- وهل يعقل المجنون، والجنون في أحشائي قد استقر منذ رأيتك يا سارية، لن أشع منك أبداً حتى الموت و..

أسكتته واصعها على شفتيه قائلة مقاطعة له بحنو:

- ستبقى لي، ولن تموت أبداً، سأجعل والدي يحفظك لي وسنخلد معًا..
سوف ترى فعل الشياطين.. أقوى من كل شيء آخر.

- لقد أمرني بالذهاب إلى البصرة لإنجاز عمل له وسأتأخر.

- أعرف، آه وألف آه لو فكرت بالخيانة، ولو تضاجع إحداهن، سأقلع لك الخصيتين.

ارتعش بدن حمدان وطرد هذه الفكرة الدامية من مخيلته ولزم الصمت حائراً، لا يدرى بما يحب.

مدّت بدورها يدها لتهديء من روعه، مداعبة مناطق حساسة من جسده..
فارتعش جفنا الرجل ثم استسلم لمداعبتها حتى أتاهمما زعيق السيد من الخارج ينادي بالإسراع بالفطور لضيق الوقت.

انتفضا من الصوت المزعج.. وولى حمدان بسرعة البرق إلى الخارج تفادياً للشتيمة، فعادت سارية لتركيز في صنع الفطور الصباحي.

عندما كانت سارية منشغلة بإعداد الفطور، انتهز حمدان الفرصة وأدخل معه بيت الحلاء بيضة كان قد أخفاها في جيب الجلباب الواسع.. لكي يستمني داخل تجويف الإبرة ويعقّنها بالبيضة.. وخز قشرة البيضة بحذره.. ليخترقها بتأنٌ.. لكي لا يكسر البيضة وتفسد العملية.

ثم أفرغ كل شيء بنجاح.. ضاغطاً على أعصابه لكي تتم العملية بلا فشل، أفرغ حتى آخر قطرة من المني في جوف البيضة، استل الإبرة من جوف البيضة ببطء.. وصر كل شيء في كيس من القماش صغير.. ودسه في جيب جلبابه.. ولكنه ظل محافظاً على وضع يده داخل الجيب كي لا تنكسر أو يفسد محتوى البيضة.. خرج مسرعاً عبر السلام مستغلًا انشغال سارية بإعداد الفطور.. ثم أخفى كل شيء داخل بقعة السفر الموضوعة على الخوان.

نزل إلى السيد، يواطّب على عدم إثارة الريبة في نفس زوجته الذكية.. فتحدّث هامسًا مع السيد أن كل شيء على ما يرام.

- القبر الذي وصفته لك.. العلامة السدايسية على الحجر الموازي لرأسه، «ثم مؤكداً» العلامة يا حمدان لا تخطئ القبر، مصير العمل مرتبط باختيار مدى دناءة صاحب القبر.

- لقد حفظت التعاويد التي سألقناها على البيضة أثناء دفنها فلا تقلق يا عمي .. في اليوم الحادي والأربعين سأكون هناك كما قلت لي.

- تأكد أنك ستدفعه بعد منتصف الليل .. تخرج من هنا لتقضى بعض الأمور ولا تعد إلى البيت بل اتجه إلى دار السائق .. فهو سيتظرك بعد منتصف الليل ليأخذك إلى البصرة.

هنا دخلت سارية بchinine الإفطار تبتسم، وجدتها يتهمسان على غير عادتها، شُكّت في الأمر وسألتها على الفور:

- اليوم لستما على ما يرام أعتقد أن سرّاً عظيماً تخفيان عنِي .
قهقه السيد، فهو يعرف جيداً مدى ذكائهما، ولذلك حاول تبرير ذلك بسرعة قائلاً:

- زوجك يسألني عن نوع هدية مناسبة من المفروض جلبها لك من البصرة.
نعم.. نعم، السيد يشاركتي الفكرة لا غير .. وهاهي المفاجئة قد فسّدت حبيبي .
تطلع السيد إليه بحنق ولم يعقب.

وضعت الصينية بأريحية ووجه مبتسماً ثم بدأت تصب الشاي أولًا قبل أن تبدأ بتوزيع الأرغفة الحارة، التم ثلاثة حول على مائدة الفطور البسيطة على الأرض، ثم قال السيد موصياً حمان:

- حمان .. إن رأيت أبو جعفر أخبره أنني مستعجل جداً في تجهيز المواد، إنه عطار جيد وبارع في اختيار المواد الجيدة وهذا لا أستغني عنه .. لطالما كان يلبي حاجاتي على مدار سنين طوال .



كان حдан دائمًا يُحدِّر من غضب السيد، يعلم أن غضبه موارب، يحمل له الامتنان لترويجه ابنته، ولكنه لا يستطيع أن يعيش العمر كله بلا قوة ولا سلطة كمَا السيد، فهو أيضًا من نسل السادة - أي حفيد آل البيت - على حد تفكيرهم، والسيد مُقدس في مذهبهم.. ولا كلام يعلو على كلامه..

أمام حدان الآن القفز إلى مصاف الغنى، فهو يعلم أن السيد يستغل شهوة حدان في نيل القوة، وهذا هو الآن يقدم له الإغراءات.

سوق الدجل والساـدة والمعمـون هي المطحنة، التي اختاروها لسحق عظام الناس، فهم يوكـلون أمـثال حدان لـتمرير الطـعم لـجوف الناس، بصـبر وـتؤـدة.

حـدان وأـمثالـه كـالأـفعـى التـي مرـرت إـبـلـيس لـلـجـنـة، كـالـسـيـد يـدخلـ فـي حـيـاةـ النـاسـ الآـنـ عنـ طـرـيقـ مـهـدىـنـ لـهـمـ، هـنـالـكـ أـمـثالـهـ منـ العـشـراتـ فـي العـرـاقـ وـمـنـاطـقـ آخـرـىـ.. وـرـبـها نـسـتـطـعـ القـولـ مـنـاطـقـ التـي اـبـلـاـهـ اللـهـ بـشـرـ أـعـمـلـهـمـ وـيـظـنـونـ أـنـهـمـ يـحـسـنـونـ صـنـعـاـ.. سـلـطـ عـلـيـهـمـ دـجـلـةـ.. وـسـفـلـةـ، وـالـسـيـدـ كـأـنـهـ تـاجـرـ يـخـشـىـ منـ غـائـلـةـ السـوقـ الـآـدـمـيـةـ التـي يـتـعـاملـ معـهـاـ، عـلـيـهـ بـتوـخيـ الحـذـرـ.. وـلـكـنـ حـدانـ.. كـانـ كـالـعـادـةـ صـفـرـ الـيـدـيـنـ فـيـ كـلـ.. هـذـهـ أـحـلـامـ السـيـدـ بـاتـ تـسـعـ لـبـلـعـ الـبـلـدـ كـلـهـ.. وـالـسـيـدـ يـؤـمـنـ بـأـنـ الـمـالـ يـسـتـوجـبـ الرـكـوعـ وـمـنـ لـاـ يـرـكـعـ لـاـ يـحـصـدـ إـلـاـ الـلـكـمـاتـ.

غادر حدان مساءً إلى البصرة.. ولكنـهـ لمـ يـقـصـدـهـاـ فـعلـيـاـ، فـكـماـ اـتـفـقـ معـ السـيـدـ فالـسـفـرـ الـمـبـكـرـ فـقـطـ هوـ لـتـموـيـهـ سـارـيـةـ لـأـكـثـرـ، اـنـتـظـرـ فـيـ بـيـتـ صـدـيقـ

وعندما حلّ الظلام انطلق إلى المقبرة، وصل إلى القبر وتأكد بعدها رأى
وتحسس بأصابعه نحت النجمة السداسية على الحجر.. بأنه القبر المقصود..
أخرج البيضة برفق شديد من البقحة ودفنه بحذر بجانب قبر الميت، خرج
بسرعة من المقبرة متوجهًا إلى بيت السائق الذي سيقلّهُ إلى البصرة.

وهناك:

تغلغلًا في جوف شوارعها عميقًا مخترقين أحيا نبت على خاصرتي المدينة
حديثًا، حيث يزداد الاختناق، وتعيث الرطوبة فسادًا بالأجساد.

كان يفكر بالبيضة التي ستحدد مصيره، فعليه ألا يطيل الغياب.. أربعون
يومًا وسيتغير كل شيء.. كل شيء.

فهناك حياة، مستقدرة، تجد نفسك مغمورًا في دنسها، حتى لو نازعتك
النفس في التخلص من قذارتها..

ستبقى راسبيًا بين لزبها ونتنها.

غياب حمدان لم يؤثر سلباً على سارية رغم الأيام القصيرة لسفره، بل صارت نشطة أكثر في أمور البيت.. عندما سألهما أبوها عن سرّ هذا النشاط غير الطبيعي .. أجابته لو عاد حمدان من سفره فالأفضل أن يلقاها بوجهٍ مستبشر لا حزين.. يجب أن يلقاها وهي أكثر تألقاً ونضارة.. بل لم تترك للحزن والغم فرصة لتأكالها.. ولكي لا تزيغ عيناه ويتأكد في نفس الوقت من أنه قد تزوج من امرأة تختلف عن سائر النساء، امرأة قوية.. وجميلة.

لم يكن والدها يُعلق.. بل كان يُخطط لها.

صارت رائفة البال، لا تضيق بمتطلبات الزوار عندما كانوا يتطلبون العجب منها من طلبات كثيرة.. في أثناء فترة انتظارهم للدخول على السيد في ديوانه الذي توسيع كثيراً.. يسمعون ضحكاتها وهي تكركر كالماء العذب المندفع من الجبل بعد ذوبان الثلج.. بجسمها البعض، تنتقل من مكان لآخر.. بل صارت تتحمم كل يوم مرتين، تكحّل عينيها، وتذهب شعرها الجميل اللامع بزيت اللوز، فأصبحت كزهرة أزهرت في الربيع، وأينعت وتكاثفت أوراقها بمختلف ألوانها، وردية وقرمزية وصفراء وبضاء،

كانت تشاغل الناس ببهاها، تشبك عابر السبيل فيرفع عينيه، ويراهما
تجسس كحورية خلف الشباك، كانت تتطلع هي أيضاً ولكن على مفرق
الطريق عسى حمان يعود إليها مبكراً. تعرف أن الوقت ما زال بعيداً
لعودته، ولكنها ترى بعين الخيال عودة الغائب الحبيب.. وما تزال تنتظر.

* * * * *

كانت أخيلة غريبة تزورها وهي نائمة، ظلال تراقص على جسدها
المسجّى في الفراش، وهي كاشفة عن ساقيها الرائعتين كلؤلؤتين تلمعان
وسط العتمة.. هبّت من نومها فجأة ذات ليلة، فتحت عينيها الجميلتين،
اعتدلت جالسة يأكلها شيء من الخوف وكثير من القلق الذي لا يرحم
جامها، لم يبادرها بزيارة الظلال لها، ظلّت متربعة على فراشها.. تحامل
على نفسها لتكسب قوة وشجاعة على ما يحصل لها الآن.. فتحبس
أنفاسها.. لترهف السمع.. همست:

- خيال.. فقط.

تحدق في الظلام لا ترى شيئاً فتتأكد أنه خيال.. فقط.

ثم قامت وتحسست طريقها إلى القنديل وأسر جته.. لتطلع إلى غرفتها
التي باتت كالهجورة.. إلا من أثاثها. اندفعت غريزاً إلى الشباك
تستجمع شتات نفسها التي أرها القلق، وضعفت القنديل على مصطبة
خشبية بجانبها، غفت ثم أفاقت مرتين، حتى سقط ذقنها على صدرها..
وظلّت نائمة حتى مطلع الفجر.

وصل حдан إلى البصرة وتوجّه مع السائق إلى أحد المقاهي التي تعمل ليلاً أيضاً، وجلسا يحتسيان الشاي، استغل السائق هدوء الليل فاقرب من حدان وهمس:

- هنا توجد حسنوات تدفع لها وتبيت عندها، أحسن من الفنادق.. وما تدفعه هناك تدفعه هنا.

تطلّع حدان بفضول ثم قال له:

- أليك معارف؟

- طبعاً وهل أنطق من فراغ.

- إذن نذهب بعد الشاي، التغيير واجب.

صعدا السيارة وانطلقا إلى جهة خمسة أميال، وتوقفت السيارة بهدوء في حي مظلم.. أمام دار متهدلة البنيان.. في حي شعبي.. أطفأ محرك السيارة وترجلابصمت.

أمسك بالساقطة وطرق الباب بهدوء.. وكان السائق يسلك وكأنه على معرفة سابقة مع أهل الدار.. خرج رجل له جسد نحيل.. عيناه عسليتان

تلتمعان كبريق ماكر، بدا كفأر مكتوم اللون.. سلّما عليه ودخل الدار
بأدب وهدوء.

تبادلوا الحديث في صالة الجلوس.. البيت كان عكس ما كان يعكسه من
الخارج.. نظيف ومرتب وكأنه تم بناؤه حديثاً والأثاث نظيف وحديث..
اتفقوا على سعر مناسب لقضاء فترة الإقامة معهم، ثم قام حمدان لأند
حمام ليريح جسده منهك ويزيل عنه غبار السفر.

كان يستحم في جو من الراحة.. حتى اقتحمت عليه الحمام امرأة.. كانت
لها قسمات منحوتة، واضحة، وجه أسمراً يميل إلى استدارة وجبين واسع،
عيناها سوداً وان تميز هما سحبة في الجانبين ملحوظة، أنفها جميل وكبير..
وشفتاها ممتلئتان، وشعر أملس طويلاً يلتمع سواده في ضوء القنديل.

سألها حمدان:

- ما اسمك يا حلوة؟

- مريومة.

- مريومة.. الجميلة.. أنت غاية في الجمال.

- هل عندك شك؟

- لا بالتأكيد.. وإلا لما سمحت لك باقتحام الحمام.

قهقهت بمكر ثم قالت ساخرة:

- آه، مفهوم.. أراك كذلك.

اقربت منه ثم أخذت منه الكيس وصبته بعد أن صبت عليه الماء،
أجلسته وبدأت بتكييسه، اليد اليمنى، ثم الذراع اليمنى.. وتحت الإبط
ثم انتقلت بالتدريج إلى الأجزاء الباقية من الجسم.. تعرق بدنها ثم
تعرّت، كانت امرأة باللغة الحُسْن، ميادة العقد، وثدياتها كأحقاق العاج،
خصية البدن، في ثدييها امتلاء.. عريضة الأكتاف والأرداف.

عندما انتهت من تكييسه صبت عليه الماء.. كانت تداعب المناطق الأكثر إثارة
في حمان فيستشيط حرارة وشهوة.. خرجا من الحمام وهي تسير متهدية
يرتج جسدها الخصيب الممتلئ ارتجاجاً.. لم يكن في صالة الجلوس أحد..
وكان السائق وزوجها قد ذابا كذوبان السُّكُر في الماء.. تسأله حمان.. فردّت
عليه بأن زوجها والسائق في غرفة النوم الثانية ثم زادت لتعلن فضول حمان:
- إنها مثليان.

سحبها نحوه وقبلها قبلة سريعة حية طبعها على خدتها الأسئيل..
وصلا غرفة النوم.. حتى سمعا وطء السرير وهو يرتج في الغرفة الثانية
والآهات تصدح فيها، ابتسما ودخلوا.

أعطته المرأة نفسها.. كانت نفسه تضطرم وروحه تشهق، وقد اجتمع
عليها نصل السكين والرجمة الحية..

ينهلان من كوثر الفردوس وهي تشتعل محقة بالنار وكأنه أول ذكر
يصادعها في حياتها.

داعبته وداعبها.. بجرأة غير طبيعية من الاثنين.. أثبت فيها حمدان رجولته، وأثبتت هي الأخرى أنوثتها التي لا تُقهر.. كان جسدها فائراً وخصيباً.. شهق مأخوذاً.. بدأ يمرر يده على جسدها حتى أسفل الساقين.. ألسق جسده بها ومرّ بشفتيه يقبلاها ويقلبها ويدعدها.

تموئ كالقطة البرية، فيزداد الثور المائج شبقاً على شبق.. ثم أماها وغمرها بجسده العاري الضخم، حتى طاشت فيه نار الفعل التي تعلو وتلتهب. أول ليلة لم ينسها حمدان، هكذا قضى الأربعين يوماً في بيتهم.. أكلُّ وشربُّ وسهرٌ وجماع.

في حين كان أبو جعفر العطار قد طلب من حمدان أن يترى حتى تصل المواد المطلوبة من النجف.. وقد تأخر أسابيع بسبب سوء النقل. اغتبط حمدان لذلك.. لكي يكون لبقاء الطويل مبرر كافٍ يبرره لزوجته. وإذا طلب الأمر أكثر فسيذهب إلى مكان البيضة ويتفقدها خلسة.. ومن ثم يعود أدراجه إلى البصرة ويتظر.

إذن كل شيء تحت السيطرة.

الأسبوع الأول لغياب حمدان:

اضطرت في الآخر أن تُثبت شكوكها لوالدها.. أضغاث أحلام ربّها..
ولكنه يجب أن يعلم بما يجري لها.. لكن والدها أكد لها أنها يجب أن
تشرب شرابًا يملكه يساعدها على طرد الكوابيس.. وعليها أن تسمع
الكلام.. وسيختفي القلق والأرق.

رَحِبَتْ ساربة بالفكرة.. وألحت أن يعطيها الشراب.. لكن والدها
أخبرها بعد المغرب هو أفضل وقت تتجرع فيه الجرعة لكي يعمل
مفعوله بانتظام.

اشتكت له بأنه أحياناً يقل عليها الصحو في الظلام، فتشتعل شمعة
وتروح تتبع شعلتها الراجفة والظلام على السقف والمدران.. كان
السيد جالساً حينها في الصالة بهدوء.. إنه يوم راحته لا يستقبل فيه
الزيارات.. مستأنساً بوجودها وبوجهها الاسبرانزو الوديع المستغرق
في الشرح.

فحضورها الفطن وضحتها الرقراقة تقتل كل تعب ومشكلة تواجه السيد في أوقاته أحياناً.. ولكنه للأسف يجب أن ينفذ أمر أسياده، فهذا شرطهم الذي يتمسكون به.. لكي يحصل على ما يحصل عليه اليوم من قوة وهيبة. يعلم جيداً أنه يُدجّل على الخلق باسم الدين وأآل بيته النبي، يستغل ولاء الناس الطيبين لصالح أعمال لا تمت إلى الإسلام ولا الأديان بشيء.

عندما حلّ المساء.. وانتهيا من وجبة العشاء.. أعطاها السيد القارورة الصغيرة، وهو يراقب بعينين تقدحان شهوةً وخبيثاً عاليين.. ظلّ يراقبها بشغف حتى شربته.

ثم وصّاها أن تذهب إلى الفراش على الفور قبل أن يكبس عليها النوم الثقيل.. فالشراب قوي المفعول.

لاحظ عليها بأن صدرها وظهرها ومنابت شعرها قد ابتلت، يكاد يسمع دقات قلبها، قالت وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها التقاطاً:

- نعست يا والدي.

أخذها من يدها وسحبها برفق إلى الأعلى وهي تتمايل وتترنح تكاد تفقد وعيها وتغرق في حلم سيدرٍ عليها عواقب غير متوقعة.

كان الجو لطيفاً والليل ساجياً والظلمة شاملة إلا أنها كثيفة تحت عرش الطبيعة، رقيقة في نصف السطح الآخر المسقوف بقبة السماء المرصّعة بلآلئ النجوم.

وفيها هو كان يتأمل الخارج من الشباك وكأنه ينتظر إذناً.. استدار وتوجه نحوها وهي ممددة على السرير.. يسير الهويني.. تسلل إلى أذنيه حفيظ.. أو لعله همس.. بل أنفاس تتردد بين لحظة وأخرى فحملت في الظلام سائلاً:

-أوليس لي؟

-بلى هي لك.. والقادم لنا.. تذكر.

حرّك رأسه بالقبول.. واندفع بهدوء نحوها، اضطرب جسمه برغبة عارمة، صاح له سوابق غير منكورة، ليس حتّماً أن تقع بعيته على طراز سارية.. ميزة حُسن واحدة تغنى عن غيرها.. وفي خطوات وئيدة محملقاً صوبها، جلس بقربها، مسّ بيده أحد ثدييها، بل تركه يصافح الثدي الآخر، ثم مدّ يده

إلى دائرة الصدر الناهد، صغيرة متفخحة، وحرّك ذراعه حركة ناطقة بالتردد، غير مصدق أن ما بين يديه لم مختلف.. غواية من نوع آخر. فتوقف متسائلاً بصوت خرج من بخار الشهوة منصهراً متوجهًا.

- أهذه سارية ابتي.. كل هذا الحُسن فيها؟ الله يلعنك يا حمدان الثور.

لمس أهداب شعرها بأنامله وسوّاها.. وقد لاح إبطها من فرجة الفستان، أملس ناصعاً رغم الظلام النسبي.. يتصل منحدره بأصل نهد كفرصة العجين، حتى سرت في بدنها سكرة الهياج، وانقضّ عليها كما ينقض النمر على الغزال.

لم يكن سفر حمدان إلى البصرة سوى خطة سوداء دبرها السيد.. اتفق فيها مع العطار والسائلق.. وذرية تأخير المواد كانت اتفاقاً معقوداً بين السيد سامي وأبو جعفر. فالوقت مطلوب لتنفيذ مأرب السيد على رواق وهدوء البال، وأربعون يوماً كافية لإكمال كل شيء.

لابد لحمدان من نهاية تُسقطه، نهاية لا يرجع منها.. وكل ما صنعه السيد لا يعود ذات قيمة حين ينافسك شخصٌ ما في جاهك، أليس كافياً أنه تزوج من سارية؟ ماذا يريد النذل بعد؟

ملل إتيان الفواحش خرج من أنفاس السيد، ولكنه كان بحاجة لسلوى جديدة لقلبه.. اقترف كل المتع، وكلما عبر إحداها، وجد أن الحياة تضيق به.

يُقعد في ديوان بيته فتاتيه الحسنوات بعقول فارغة ويطلبن أن يجلن.. ولا مانع لو كان الفاعل هو السيد نفسه بل بالعكس سيكون المولود مُباركاً فيه حيث ستتفحّص دعوات الملائكة بالعمر المديد والسعيد.

النساء يعشقن التحديق، تعشق إحداهن أن تُسمّر عينيك بها لترتوي
أنوثتها.. والسيد يستطيع أن يزيدها زهواً، ونشوة.

المال، المتعة، الجاه، آخر المُبهجات التي وصل إليها، صاحب القامة الراسبة.

المال يجفف الأخلاق، فلا أحد يهتم الآن بالمبادئ، الناس تعبت من
الحياة، النساء حائرات.. يشكون من برود أزواجاً جهن.. ومن الوحدة..
فلِم لا أكون الأب الروحي لهن، بل للقرية كلها؟.

قالها محدثاً نفسه.

لمح كلباً أسود.. قذفه في سرّه بالسب متوجّاً بسخرية لاذعة حاله:

- أتراكَ جني أم كلب حقيقي؟

في هذا الوقت من الظهيرة تسريح الحيوانات كما لو كانت أصياغاً سيئة
الإعداد.. تشتهي قطعة لحم أو جيفة ملقاة على الطريق لتكون وليمة
 المناسبة لبطونها.

لا يحب السيد أن يرى حيوانات متتسكعة أمام بيته، تتحرّك موجة غضبه
المتجعد ليُرسل شخصاً من أهل بيته ليبعدها عن أنظاره بالضرب أو
التلويع بحجارة وقدفها عليها بغضب. ولكن الكلاب الأكثر بذاءة تمر
كل يوم من أمام بيته وتعوي عواءً مسحوراً ليستشيط السيد غضباً ويبدأ
بالكفر واللعن من الذي أوجد هذه المخلوقات بلا فائدة.

الليلة عودة حمان...

حضر السائق في الموعد المتفق عليه.. وكان حمان مبهجًا على قصائه
الوقت مع السيدة، كيف ينساها وهي تمشي إلى اتجاه السرير بخطى وئيدة
فيهتز ردفاتها ويستقيم جذعها كالقضيب ثم تنام عليه وتغطيه بحسد
كله أنوثة.

تممت بدلال وهي توّده:

- لا تنسّني.

- أنساكِ.. كيف أنسى من أنسنتني نفسي.

- أنسيتكَ حتى زوجتك؟ «قالت بمكر».

- الله يلعنها. «قال باستياء».

كركرت ثم قبّلته قبلة طويلة من شفتيه.. مصمصتها وكأنّها أعلنت عن حرب
لا مردّ منها ثم تركته ودفعته ضاحكة نحو الباب.

سافر حمدان مع السائق إلى الهاشة، يستذكران بفخر أحداث الأربعين يوماً التي مضت بسلام.. ثم قال حمدان بخبث:

- لم أعرف بأنك تحب مضاجعة الرجال.

لم ينجح السائق بل بالعكس اندفع ليحكى حكايته مع زوج السيدة صاحبة البيت قائلاً:

- أنقذته من ناس كانوا يضربونه بقسوة أمام داره، فشكري وقدّمني لزوجته، وفي الليل ضاجعت الاثنين معًا وما زلت.. فكما ترى أتصرف هناك وكأنه بيتي.

ضرب حمدان كفًا بكف قائلًا بوجهِ يحملُ الدهشة والابتسامة معًا: .

- أنت داهية يا حاج .

ظلا يستعيدان ويستذكراًن لبعضهما أحداث الأربعين يوماً حتى وصلا الهاشة التي كان يغلفها سكون الليل من دون أن يشعرا بالوقت..

ثم فجأة قطع السائق حديث حمدان قائلاً:

- عفوًا للمقاطعة.. أين تحب أن تنزل؟

- أنزلني قريباً من المقبرة لأنني جلبت أمانة على بتسليمها لشخص ما أولاً.. ومن ثم أتجه إلى البيت.

لم يجد السائق أي اندهاش من هذا الطلب بل أوصى حمدان إلى المكان الذي طلبه بكل سرور.. نزل حمدان وانتظر السائق أن يتبعه ثم التفت يمنة ويسرة واندفع بسيارته مُندسًا بين المقابر. دخلها دون ارتباك، فرك كفّيه قائلًا:

– وصلت إلى ما أبغى إليه، دقائق تفصلني عن السعادة.

مشى ..

ثم تقدمَ واثق الخطى بمشيته ..

تقدّمَ بين الأموات .. مركّزاً عينيه إلى الأئمّة، في نقطة لا يراها غيره .. عيناه تلمعانِ من شدة القسوة، يدوس على قبرٍ صغيرٍ غائرٍ بلا رحمة ولا يلتفت .. حتى أبطأً من مشيته ..

وصل إلى القبر ..

القبر !

و.....؟

تمسّرت قدماه في الأرض، كادت عيناه أن تخروا من محجريها ولم تمض ثوانٍ على ارتباكه ..

حتى حدث كل شيء في أقل من وهلة ..

الجسد بدأ يهتز مثل شخصية بيد طفل سادي.. يهزه بعنف، ويتفض
كأن خط إمداد كهرباء قد احتضنه.. حتى تفجر شريان صغير في عينيه،
صرخة مكتومة انفجرت من نفسه العفنة، وزبد سال من شدقته قبل أن
يميل بيكله ويحيط على الأرض.. ويتقيأ نهراً أصفر ممزوجاً بالدماء.

فانتفتحت الأوردة في عنقه ووجهه وكادت أن تنفجر.. وكأنه تعرض لهجوم
عاصر من قبل ثعبان الأناكوندا.. كالثور بدأ يقاوم شيئاً غير مرئي بلا
جدوى.. حتى سكت بعثة، همد وارتختي وكأن روحه تنسل منه غصباً
وبلا إذن، كالإرث بات يندثر..

ووجهه يشي بزوال المعاني، حتى همس بنفسه واهن متهدّج تلؤه حشرجة:

- آآآآآآآآآآآآآآ.....

سوداً بلا قمر ولا نجوم ولا بشر...

سكون دام طويلاً...

حتى انبعث صوتُ مفاجئ وكأنه كان يستريح من التسلية ثم عاد
ليواصل جنونه مع صحيته...

لم يكن نباحاً ل الكلب أسود...

ولا زئيراً لأسد فتكه الجوع...

ولا مواء قطة سوداء...

بل كان صوت حسيس نار بلا وهج، التفّ بغضب عارم حول جسده الملقى على الأرض كالشعبان يلتقط عليه.. وكأنه يريد أن يترك خاتمة مناسبة على مشهد الرُّعب.

ثم اختفى كل شيء في لحظة.. تارِكاً حمدان جثة هامدة.. خلفاً وجهاً يابساً.. وُحفرًا على خديه بخطوط غائرة وكبيرة.. وانكسرت عيناه في محجريها كجزيرتين في محيط... لفَّ المكان هدوء... هدوء كبير يغلفه الخوف..

أما الجسد الفارغ من الروح فبقى مُسجّى على الأرض حتى طلوع الشمس.

بعد شهور من موت حمان...

وبينما كان الليل يستبشر بدره، وتدلّ كقنديل يتوهّج خفّاً وطأة الظلمة
الرابضة في القرية...

كانت ولادتها عسراً، وكانت أن تُشطر جسد سارية وتهلكه إلى الأبد، كان
الجسد كَوْتَر مشدود تحتمل ما لا يحتمله، حتى اندفعت الوليدة وسمعت
صراخها الواهن.

فحملتها بين ذراعيها باكية، تأملتها وقبّلتها فأحسّت بمذاقها على شفتيها.
وفاض حليها فألقمت الفم الصغير حلة ثديها.. فتحرّك حشاها كأنما
تشقّ تربته نبطة طالعة.

لم يتغير السيد، لا هو مسرور ولا هو بحزين.. هو الوحيد من البشر
الذى يعلم مصير الطفلة ومن أي شيء خُلِقتْ.

أما بالنسبة للأم فلم يكن ذلك فرحاً الذي ملأها لأن الفرح يضيق. كان
شيئاً يسري في بدنها، يدخله الرهبة والفرح والوجل، تجمعت الحياة

ببدرها العالي وسمائلها بالتصاق فمها الصغير بحلمة الثدي والصدر وكأنه نبع أو ديمة سكوب في سماء الله الصافية.

كانت تنمو بسرعة على غير طبيعة الأطفال، ففي شهرها الخامس وعلى غير طبيعة الأطفال.. بدأت تحبو بسرعة وعندما بلغت السنة كانت أسنانها قد اكتملت بدون أن تصيبها الحمى كما تصيب بقية الأطفال.

أثارت هذه المسائل تساؤلات الأم ولكن أباها حذرها من أن تتفوه بأي كلمة للجيران لثلا يمس الطفلة حسد.. فما يحصل طبيعيٌ للغاية.

السيد لا يعلم كم سيطول من الوقت وتحتفي الجنيّة الصغيرة.. عليه أن يسأل قرينه، ولكنّه ينسى في كل وقت يكاد يسأل فيه عن مصيرها.. ولربما أنسوه.

كان في كل وقت يجلس بجانبها ويهمس في أذنها:
- أخبريني من سيأخذك.

تتطلع بعينيها البريئتين ولا تحبب.. تملؤها براءة الطفولة بابتسامتها المفعمة البشوش. يجلسها على حجره.. يحاول الوصول إلى شيء.. أي شيء..

ولكن الطفلة لا تعي ما يقول.

بدت حميدة وهي تتمعن أناقتها في المرأة مشرقة.. قبل أن تخرج لاستقبال «جودت بيك» الحالس مع زوجها في الصالة، بدت شديدة الإعجاب بنفسها، توفر لها كل شيء، ولها ابنُ الآن قد بلغ الخامسة من العُمر، وزوج غنيٌّ أخرق، و.... وعشيق وسيم.

والأخير بات يتغزل بها جهاراً أمام زوجها الذي أضحي كلعبة لا فائدة منه سوى أنه زوج بالاسم فقط. كانت تنصت باهتمام لما يدور من حديث بين العشيق والزوج، لا حباً في نباهة الزوج بل عشقاً في سماع صوت العاشق المحموم.

ارتشف رفعت بيك الشاي بهدوئه المعهود وهم جالسون في الصالة الفخمة بأثاثها وزخارفها الراقية .. قبل أن يسأل جودت بيك:

- أما زال الملك مشغولاً بأمور رجال الدين بعد ترحيل الخالصي من العراق؟
- المشاكل لا تغادر أراضينا.. حتى من بعد مبايعة الملك على حكم العراق

عام ١٩٢١ بمعاهدة مع بريطانيا.. وحتى بعد استقلال العراق عام ١٩٣٠ عن الناج البريطاني وإنتهاء حالة الانتداب.. ومعارضة الخالصي للانتداب سببت له مشاكل وخيمة مع الملك.. فضاقت بريطانيا منه ومن دور والده لتنفيذ إلى الحجاز.. قبل أن يهرب إلى إيران بعد أن أدى مناسك الحج.

- على ما أعرف بأنّ هذه الاتفاقيات كانت بنودها لصالح المملكة المتحدة بخصوص تسهيلات عديدة لهم.. تخص مرور القوات البريطانية إلى أراضينا في أوقات العمليات الحربية.. وبنود تخص التعاون معهم في مجالات اقتصادية عديدة.

- هذه المعاهدة مهمة للإنجليز وخصوصاً بعد ثورة العشرين التي كبدت بريطانيا خسائر فادحة على أراضينا.. وبعد مؤتمر القاهرة عام ١٩٢٠ بحضور وينستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني آنذاك أعلن عن تغيير جذري لسياستهم في العراق من استعمار مباشر إلى حكومة إدارة وطنية في العراق... والظاهر أن وجهاء العشائر في الجنوب من قاموا بشورة العشرين لم يرُق لهم هذا القرار.

- ومع ذلك فمشاكنا لم تنتهِ.. وفي عزّ هذه الصراعات شكا ملكنا عام ١٩٢٣ للملك عبد العزيز من قبيلتين منتشرتين في العراق والسعودية من الغارات على طوارقنا في أواخر القسط، نهباوا بعراً وخيرات الله..

ونهباً تابع الملك عبد العزيز الرباعي أثناء تعرضه لغزوته عبر الحدود من العراق فسلبوا كل ما بحوزته من جمال ومتاع.. أعاد الله ملوكنا فبدلاً من الوقوف بجانبه لا نجد نحن العراقيين سوى الرفض والمعارضة.. يستر الله من القادر.. فنحن على استعداد أن نقتل الملك وكل من يخلفه.. أسألني أنا عن هذا الشعب.

- ولا تنسَ الآن شاه إيران أيضاً.. الذي يتربص بالمملكة من خلال تحريك رجال الدين ودسّهم بين الناس لإثارة مشاكل لم تخطر على بال أحد.

قالها «جودت» بأسى واضح.. خفض عينيه للحظة متفكراً ثم رفعهما فإذا بهما تعكسان نظرة قلق.. فتلاعب دبيب الحزن بقلبه حتى أدركت حيادة الموقف قبل أن يتحول المجلس الجميل إلى مأتم .. بعدما رأت بأنّ الصمت بدأ يُشحّن بالتوتر فأذاحت كابوس الصمت بكلامها:

- إن لم تكفوا عن حديث السياسة فسأترك مجلسكم المتهالك.. السياسة خارج الدار وليس هنا.. يُخْصُّونُ الخالصي... يغتصبونه.. يموتون الملك أو يحيى ليست مشكلتي بل مشكلة الفقراء.. نحن خارج هذا الموضوع فأرجو أن تكفوا عن ذكر السياسة أمامي.. ضيق ذرعاً منكم.

كلامها الجريء أذهل الاثنين.. فحارا بالإجابة واكتفيا بالضحك على طول لسانها وجسارتها.. فرمقها «جودت بيتك» بنظرة متقدة لسعت قلبها على الغور.

«جودت بيـك» لا يخلو له الشراب من قلـة إلا من الموضع المبتل بريقها،
ويدلـلها دائمـاً سواء بوجود زوجها أو أن يكونـا على سرير واحد.. فتركت
حـميدة إلى إهمـال زوجـها.. وتـتمنـي زوالـه كما تـتمنـي زوالـ صـفـيـةـ. جـودـتـ
بيـكـ يـعـشـقـ رـاحـتهاـ المـخـضـبـةـ بـالـحـنـاءـ. وـيـرـنـوـ إـلـيـهـاـ بـشـوـقـ وـافـتـانـ، وـيـصـرـ
عـلـىـ اـحـفـاظـهـ بـهـ رـغـمـ كـلـ شـيـءـ.

يـرىـ جـسـدـهـاـ المـشـوـقـ وـسـاعـدـهـاـ الـبـضـ فـيـزـهـدـ فـيـ النـقـاشـ، وـعـنـدـمـاـ تـقـدـمـ
لـهـ الشـايـ يـطـاـيـرـ إـلـىـ أـنـفـهـ رـائـحةـ قـنـفـلـيـةـ وـدـ لـوـ تـغـوصـ شـفـتـاهـ فـيـ لـحـمـهـاـ
الـطـرـيـيـ، فـيـتـنـهـدـ فـيـ سـرـّـ بـحـرـقـةـ.

* * * * *

فيـ الـيـوـمـ الثـانـيـ كـانـتـ حـمـيـدةـ عـلـىـ موـعـدـ مـعـ صـفـيـةـ تـجـلـسـانـ فـيـ مـقـهىـ كـلاـسيـكيـ
فـخـمـ عـلـىـ ضـفـافـ شـطـ العـرـبـ.. تـخـتـسـيـانـ الشـايـ.. كـانـ الـحـدـيـثـ فـيـ بـدـاـيـةـ
الـأـمـرـ عـابـراـ.. تـتـطـرـقـانـ لـمـوـاضـيـعـ مـخـلـفـةـ وـعـابـرـةـ حـتـىـ تـقـصـدـتـ حـمـيـدةـ
بـالـتـطـرـقـ لـمـوـضـوـعـ شـخـصـيـ حـولـ حـمـلـ صـفـيـةـ.. الـأـخـيـرـةـ أـخـذـهـاـ الـفـضـولـ
فـهـذـاـ الـمـوـضـوـعـ الـمـهـمـ الـذـيـ يـشـغـلـ بـالـهـ طـيـلـةـ الـوقـتـ.

أـحـسـتـ بـأـنـهـاـ كـنـدـفـ الـثـلـاجـ تـتـطـاـيـرـ بـخـفـفـةـ فـيـ الـهـوـاءـ بـلـ صـاحـبـ أوـ استـقـرارـ..
الـطـفـلـ أـهـمـ شـيـءـ تـفـكـرـ بـهـ، حـتـىـ وـإـنـ كـانـ زـوـجـهـاـ لـاـ يـهـتـمـ بـهـ كـسـابـقـ عـهـدـهـ،
وـلـكـنـ الـمـوـلـودـ سـيـغـيـرـ حـتـمـاـ كـلـ شـيـءـ وـسـيـذـيـبـ جـلـيدـ الـانـزـالـ بـيـنـهـمـاـ وـتـعـودـ
الـمـوـدـةـ لـاـ محـالـ.

قالت حميدة:

- الحق عليك.. أخبرتك من قبل أن آخذك إلى السيد سامي وأنت ترفضين دائمًا.. أحلف لك بالمقذّسات أن دواءك عنده.

- ولكنني أخاف من هؤلاء الدجلة.

انتفضت حميدة من كلام صديقتها.. فانتفضت معها صافية وجفلت على غرار ردة فعل صديقتها وكأن مسًا شيطانياً أصاب الاثنين.

سارعت حميدة بالاستغفار على الفور وصاحت بصوت خفيض:

- كيف تقولين هذا على حفيد آل البيت هل جنتِ؟

- آل البيت؟ وما دخل هذا في ذاك؟

- هذا سيد سامي يداوي المرضى بلا عقاقير ويرزق الناس بلا أي شك..

يسفي الصدور العليلة و....

ضاقت صافية من هذه الكلمات ثم قالت بضمير شديد مقاطعة باستنكار:

- يسفي ويرزق؟ هل يحيي ويميت أيضًا؟

قالت بسخرية.

كادت حميدة أن تنقض عليها لو كان الأمر يسيرًا.. ولكنها تحاملت على نفسها لتحمل عناد تلك العاهرة كما تعتبرها دائمًا لأنها نافستها وشاركتها في عشيقها.

ثم أردفت صفيّة:

- أوليس هؤلاء السادة كما يدّعون بأنّهم من نسل النبي .. فيتزاحمو على القاصرات ويستغلون الأرامل والنساء الجهلة ليتزوجوا منها كمتعة؟ إنّهم سبب تعاسة البلاد وشقاقنا انظري إلى ما يفعلون في المملكة من تخريب، ولا ؤهم ليس للعراق بل لجهة أخرى ولا أشك في ذلك أبداً.. لا دين لهم.

- صفيّة أنا جربت هذا السيد وكانت وصفته ناجحة، حاوي أن ترمي بكل هذه الخرافات وراء ظهرك فقط للحظات وتمعني عزيزتي في وضعك.. أنت امرأة تحتاجين إلى طفل وهذا الحال لا يتناسب مع ما أنت فيه من علاقة متوتة مع جودت الذي يرفض التعاون معك.. سيهجرك يوماً وبلا شك لأنّه لا يربطه بك أي شيء.

- نعم ولكن ليس بطريقة عمل حرز أو سحر.

- وما هو الحال برأيك؟ لعلّك الحرز يفك المشاكل إلى الأبد.. أعتقد لو أن «جودت» يتركك للأبد عندها ستندمدين.. تأخذه منك امرأة بارعة في الدهاء.. هل هذا ما تريدينه؟

أرعبت حميدّة بكلامها فرائص صفيّة.. تمنت..

ولم تجد شيئاً مناسباً لتقوله.. ربما حميدّة على حق.. فهي صاحبة خبرة في الحياة وصديقتها القريبة جداً..

بدت ساهمة وغامت عينها وكأنّها ترى كابوسًا وسيأخذ كل شيء منها
بحلقة خاطفة.

- اعقلِي حبيبتي ودعيني أخطط لكِ هذا الأمر فأنا أحبكِ والله.
فَكَرِت بصمت، تركتها حميدة لتفكر وها في طريق العودة إلى البيت
بسّيارة حميدة الفخمة.. نزلت صافية متوتة والحزن يعلو وجهها، لم يكن
يومًا ذلك الذي ضاقَ به صدرها فاختنقت، بل يومًا بعد يوم بل مئة
يوم.. تدرّب نفسها على التعلق بقشة الأمل وطاقة الضوء حتى ولو كان
صغيرًا.. كانت دائمًا قوية ماذا حدث؟

فالبنت قبل زواجها تعيش في كنف والديها معززة، مدللة.. كالشجرة
وارفة الأغصان، والدها الغني لم يدخل عليها شيء، فهي كل شيء له،
وعندما تقدّم لها الضابط الشاب اغتبطت وطارت من فرحتها، أحست
بأنه الفارس هو حبيبها وكل شيء في سفر حياتها.. وسيريحها إلى الأبد.
ولكنّ ما حصل بعد الزواج كان العكس تماماً.. أذاقت المُرّ بعد أن شبعَ
منها، وعاشت في حومة تعذيب وبؤس، وحيدة لا صاحب لذلك الجسد
الشفاف كالزجاج الملمس.. فقدت إحساسها بأنوثتها، تركتها، كبدن
مُجرّح وروحها كالطائر الذبيح تنفض.

ربما حميدة على حق!

اقترحت سارية على أبيها أن يجلب خادمة لتعاونهم في أمور البيت، فوكلها أبوها لإنجاز هذه المهام.. فجلبت معصومة.

امرأة سمراء من نسل عبيد متوازيين، كانت تعيش في منطقة الحيانية في بيت زوج خالتها، وكانت تخدمهم بكل نشاط.. يحبونها وتحبهم.. يتيمة الوالدين، تبته خالتها من الضياع.. هي في مقتبل الثلاثينيات، وافرة القد، وطويلة، معصومة وجه مختلف عن باقي النساء بلونها الأسود، فوجهها منحوت القسمات جميل ويميزه جبين عال، وبشرة لامعة، ولها أيضاً ميزة أثارت في السيد ناراً لم يعرفها من قبل وهي وشم قديم على اللسان السفلي.

كانت بارعة في أمور إدارة البيت والطبخ، وبعد فترة قصيرة من خدمتها في بيت السيد نمت الألفة بينها وبين أصحاب الدار. كانت تخدم الزوار بكل نشاط.. أُعجب بها السيد كثيراً وكانت كلما ذهبت أيام إجازتها إلى بيت خالتها.. أغدقها بالفواكه المجففة والطحين وكل ما تحتاجه الأسرة من مؤون.

إضافة إلى السائق الذي كان يوصلها على حساب السيد كلما تطلب الأمر لزيارة معصومة أهلها في الحيانية.

كانت معصومة سعيدة في خدمة السيد لدرجة أنها كانت تخاف من أن تخسّد نفسها بنفسها على هذه النعمة.. حتى كفّت عن الحديث للمعارف خوفاً من زوال الخير.. حتى حدث شيءٌ تغيّرت فيه الأمور وهاجت النفس المطمئنة ولم تسكن بعدها.. فبقيت الهواجس تجتاحها دائياً.

في إحدى الليالي شاهدت معصومة السيد يتحدث إلى شيء غير مرئي.. كان كلما ازداد نعيق الboom ازداد هو غبطةً وإيشاراً لأمر لم تفهمه هي.. جالس في غرفته بجانب الشباك في حركات مبهمة لا تليق بعمره المتقدم.. هل تراه يستمني؟ وماذا يفعل؟ هل يراقب من خصوص الشباك الخلاء المظلم ولماذا؟ مع من يتحدث؟

كان هذا قبل أن يكركر السيد، مما أثار مخاوفها وترجعت بربع وهي ترقبه من فرجة الباب..

- هل هو مجانون أم يتكلم مع أرواح آل البيت؟ إنه سيد ولا بد من أوقات محددة يجالسهم ولربما هي ستعرّك صفو الخلوة مع ساداتها.. وما رأته قد يكون تخيلات التعب!

تركّت المكان وحال استدارتها انفضّت من رؤية الفتاة الصغيرة واقفة متتصبة أمامها.. وكأنّها ظهرت من العدم.. تقذفها بنظرات

عبوس مليئة بتهديد.. لمعت عيناه فجأة، جعلت معصومة تتبول على نفسها من شدة الهلع .. ثم استدارت الصغيرة ورجعت إلى الغرفة بخطوات وئيدة.. اعتلت السرير لترقد بجانب أمها بدوء، قبل أن يملأ الارتعاش معصومة التي تحاملت على نفسها وأسرعت من خطها فقط لتصل إلى غرفتها المظلمة.. أغلقت الباب على عجل، وأسندت جذعها عليه.. حتى تهالكت قواها شيئاً فشيئاً وجثت على الأرض وكأن الشيطان كان يلاحقها ساقاها ثقلاً حديداً ورأسها يقرع كالطبل، زفرت بشدة تبديداً لخوف قشعر جلدتها قبل أن تتمم:

- أَعُوذ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ.

في لقاء معه.. أصرّت حميدة بأن تنهي فيها حياة صفية، كانت تتحدث إلى السيد بشأنها - تشكو إليه بحرقة فاجعة زواجها من عشيقها وعدم إنجابها لطفل، والسيد يستمع بمكراهه المعتمد دون تعقيب إلى حميدة، لأن أنفه يستنشق رائحة صفية.. يهيج السيد عندما يسمع حميدة تحترق بلذة الملتاعة وتتصف صديقتها بالعاهرة - سرقته مني - والسيد يستمتع بشتمها لصفية.. تزيد شهوة على شهوة.. يتخيّلها عارية تناديه بأن يعتليها.. زوجة الضابط الذي سيدفع ثمن ما طالهُ من أفعال رجاله الذين بعثهم ليقتادوه أمام الناس إلى المديرية.

يراقب شفاه حميدة وهي تعلى عليه حكايات صفية التي خطفت عشيقها منها، وزادت حياتها تعقيداً.. ترتعش أناملها حينما تذكر اسمها، وينهدج صدرها بنفسٍ مضطرب حينما تذكر اسم عشيقها.. تغوص بذكرها.

والسيد يكتفي بابتسمة من طرف شفتيه، وتارة يمسح بعينين راعشتين جائعتين إلى المزيد من اللذة.. رأسها إلى قدميها.. ليرُكَّز نظره في النهاية على ساعدها المُثقل بالذهب.

أردف:

- تريدينها لعبه بين أصابعك الناعمه.. تلعبين بها كما تشاءين؟

اتسعت عينها وقالت في غبطة وحقد:

- لعبه بين أصابع يدي.. كيف؟

- الأمر سهل جدًّا.. بالصبر نريحها وقبل كل شيء تسمعين تعليماتي لكي لا يشك زوجها.

- كيف؟

غطى السيد كتفه بعباته وقام من على الأريكة متوجهاً للمكتبة الكبيرة الموجودة في الديوان، وبخطوات هادئة محفوفة بسكونية عالية في نفسه.. ما إن وصل المكتبة مال بجذعه على مجر.. سحبه برفق.. وتحسس خلفه ثم لامست أصابعه كيساً صغيراً اقتلعه بخفة.. ثم رجع ليجلس مكانه، وأشار لها بالاقتراب بسبابته.. اقتربت منه حتى تقاد تلامس وجهه تنظر إلى الكيس بوجل.. انتشى من عطرها ثم حرك الكيس الصغير أمام عينيها كأنه ليغيرها.. قالت:

- ما هذا؟ كيس سكر.

أطلق ضحكة سخرية خفيفة.. ثم أمسك ضحكته قائلاً:

- بداخل الكيس وصفة سحرية سيجعلها شخشيخة بيده.
- اتسعت عيناهَا وسألت وهي تتفحص الكيس بعينين لم تخلوا من الخبرت:
 - كيف؟
- على أن تعتمد هي على جرّعات عديدة وسيكلفك كل كيس مبلغًا من المال.
- لم تهتم للجملة الأخيرة.. بقدر اهتمامها بما بداخل الكيس:
 - لا يهم أخبرني كيف أجرب هذا الكيس.
- حسب ما علمت.. صفية تحضر كل يومين إلى دارك لشرب القهوة معك.. تخلطين شيئاً قليلاً منه بالبن أثناء إحضارك للقهوة وترتشفها هي، يوم يومنا ثلاثة سوف تأتي من تلقاء نفسها لا تستطيب قهوة في الدنيا إلا قهوتك.. حينها أظهر أنتي هنا أقابلها وما ستطلبه هي سيكون بشمنه.
- قصدك تُدمِن على هذا الشيء؟
- بالضبط ونقبض على زمام الأمور وتزيجئها من غير تعب.
- أزاحت رأسها وقد التقطرت الكيس من يده.. تمعنت فيه ثم أطبقت كفَّها عليه قبل أن تدخل معصومة بالشاي. لزما الصمت حتى وضع صينية الشاي على الحوان وغادرت الديوان بهدوء.
- خادمتك الجديدة رهيبة.

- من معصومة؟ نعم وجميلة أيضاً.

- مريحة؟

- لم أجرّها بعد - قال مردفاً بأسف -.

شردت قليلاً واشتعلت أفكارها على الفور، كما تشتعل النار في القش وتلتهمها من الجنون.

لاحظ شرودها فأيقظها السيد من سبات أفكارها قائلاً:

- أراك ذهبت بعيداً.

- ذهبت بفكري إلى هذه العاهرة.. كيف ستكون نهايتها.

- سيكون لكِ وحدكِ لن تنافسِكِ أي عاهرة عليه بعد اليوم؛ السيد لا يُخطئ.

ضحكَت بصوت عالٍ ثم أخرجت من صدرها محفظة من القماش فتحتها وأخرجت منها مبلغاً من المال وسلمته.. ثم لفتَت كيس القماش واضعةً كيس البويرة في داخله وخابتَه بين متأهات صدرها الثائر.

ناولت السيد المبلغ، تفحّصه بسرعة فكسا الرضا وجهه ثم دسّ المال في جيبيه.

أملأها بالتعليمات وكيف ستقوم باستدراج صافية إلى إدمان هذا الصنف ببطء لكي لا تثير شكوك من حولها وخاصة زوجها..

* * * * *

كان الجو حاراً.. الهواء لافح، والرمل في الخارج يتطاير كشهب السماء
لترىق الوجوه والصدور.. كان سائق حميدة يتظر كاظماً غيظه يلعن سيدته
وزوجها، واليوم الذي عمل به معهما، متى ستنتهي هي من الزيارة
المباركة، ويرجعان بسلام إلى البصرة.. ويتخلص من هذا الحر.. كان
يتسائل بغضب وإذا به قبل أن يتم السب المتبادل حتى ظهرت السيدة
وهي خارجة من الباب ليذوب غضبه وينسى اللعن، ركض باتجاهها
ليفتح الباب.. تغيير مفاجئ في لهجة اللسان التائر.. الآن بدأ يتفوه
بكلمات تُعبر عن الاحترام للسيدة التي قالت له:

- تأخرت عليك.. أعرف أن الجو حار وهالك.

- لا بالعكس لو حتى كنت ستتأخريناليوم بأكمله لن أكل عن خدمتك.
فتح الباب الخلفي لها لتجلس، ثم أغلق الباب بهدوء وأسرع إلى مقعده..
أدأر محرك السيارة بابتسامة رسمها على وجهه، لينطلقوا ويرجعا من حيث
أتيا «البصرة».

رأته يستمني !

يطلب اللذة الجنسية منفرداً.. كالعادة راقبته من فرجة الباب وكأنها التقطت شيئاً لا يقدر بثمن.. كان الجميع خارج الدار عندما بكرت معصومة بالرجوع من السوق.. عرجت على غرفة السيد الذي لم يحس بها حتى اللحظة الأخيرة. لم تنتظر ليكمل شعرت بشيء من التقزز للمنظر.. فغادرت المكان على عجل.

دخلت المطبخ وتصنعت بالانشغال.. شردت أفكارها حتى..

وبخطوات هادئة وبابتسامة عابثة على وجهه الشاحب أخذ يقترب منها إلى أن بلغها ليقف أمامها مباشرة.

حدقت فيه بمزيج من الرهبة والذهول والرعب ليبدأ هو بصوت حمل من العبث أهواه.. اقترب منها وبدأ يتمتم بكلمات جعلتها ترتعش.. أغمضت عينيها وشعرت بدوخة ودوار شديد.. حتى بدأت تفقد وعيها.. أجلسها على الأرض.. وجعلها يتحسس بيده تتلمس أماكن من جسدها.. هنا انهارت معصومة.

نفث هواءه في صدرها، اشتعلت الجذوة في صدر السيد.. حتى امتدت النيران إلى أنفه وعقله، تريد أن تقاوم ولكن عبّا.

أحسست بأنها مُكَبَّلة وما هي بمكَبَّلة.. كانت أنفاسها الحارة وهي مدّدة على الأرض تخمس روحه.. لم يلحس بل أكل الشفتين وأخذ يعصر وينهل منها عصير النسوة.

غاص فيها كما لم يغص في امرأة من قبلها.. أصعدت الشياطين والجان لصوت اللثم واللهثان.. القرین يبارك للسيد خطواته.. قبل أن بعض شحمة أذن خادمته.. لتسري الرعشة فيها وتلغى فكرة أن تقاوم هذا الرجل المبارك.

يُمتص الدماء من عروق الرقبة متّسّيًا من عطر جسدها أعلى مراتب النسوة.. حتى اعتلاها.. اعتلى سباء معصومة.. خرّج جناحيها واعتصر سحا بها الداكن.. تنهّج أنفاسه ويرتعش جسدها الثائر تحته، وهو لا يُكُف عن التمثّمات وكلما زاد في القراءة تتسمّر معصومة وترغب بالمزيد فاقدة وعيها لا تتفوّه شفاتها سوى بكلمتين:

- مولاي السيد.

وضعت أربع ملاعق من البن العربي المطحون ثم ملعقتين للهيل المطحون
وتلتها كوبٍ ماء قبل أن تضعه على نار هادئة لتغلي القهوة بهدوء.

كانت صافية واقفة وراءها تبْثُّ كعادتها ش��واها لصديقتها.. ثم تضحكان
بعد قليل بلا توقف عن ذكر جودت في صولاته الغرامية معها سابقاً..
وصلت القهوة درجة الغليان ورفعتها عن النار قبل أن تفور برغوثها
السمراء.. وضعت فنجانين ودلة القهوة في صينية فاخرة وتوجهتا إلى
الصالحة.. سبقتها صافية بالخروج من المطبخ قائلة:

- أحسن شيء أن تصنعي قهوتك بنفسك.

- طبعاً حبيبي القهوة دليل ذوق المرأة.. فقط أنا من أجيد صناعتها
وعلى مزاجي.

استغلت حميدة انشغال صافية بالكلام، فعمدت أن تمشي وراءها وتصنّعها
بانشغالها لكي تفرغ في فنجان صافية بعضاً من البودرة البيضاء.. ثم
أحفت الكيس بسرعة.

جلستا على الأريكة وبدأ الحديث بأريحية عالية ثم بصب القهوة برغوثها
الكثيفة الشهية، التي أثارت من عبق عطر الهيل انشرح النفس وارتياحها،

راقبتها حميدة بشيء من القلق لترى ردّة فعل صفية من مذاق القهوة الجديد.. أحسست بشيء من قساوة المراارة عندما انعكس ذلك على وجهها.. حتى عاجلتها حميدة بالسؤال وبشيء من القلق كسا وجهها:
- أأعجبك؟

-نعم بالرغم من مراتتها ولكن هذا ما أحبه من القهوة.. هذه المرة أعترف بأنك برعتي في صنعها.

ارتاحت أسارير حميدة وهي تلعن في سرّها السيد على دهائه.. وبعد ثلات ساعات بدت صفية منتشرة.. بانت كسندريلا ثملا، ولم يمر الوقت طويلاً حتى تدفقت النشعة في مساماتها ورأسها.. كان ثوبها قصيراً جداً والسااقان ناصعتا البياض كعمود مرمر في معبد يهودي، كلما حرّكت ساقيها انفرج ليكشف عن لباسها الأرجواني يستقر هادئاً ما بين فخذيها.. لمحتها حميدة وشهقت بهدوء، حيث نزل مساء ذلك اليوم بغتة.. مساءً سقط كستار مسرح كسا السماء صفاءً وجهاً، أدركت حميدة أن خطتها نجحت، فها هي ترى التواء جسد صفية في جلستها كسمكة ذهبية تسبح في نهر هادئ.. تحسّن نفسها بحيوية ونشاط.. حيث أثّرت القهوة على فيزياء جسدها.. ومنحنياته القياسية، حينما بدأ عقلها بالانطفاء، وترك نفسمها ليسقط سقوطاً حراً بين أحضان النسوة، مسكت برأسها ثم قالت بنعومة الأنثى:

- أحس بأني أطرق أبواب الجنة.. وأدخل رياضها حافية القدمين، سأطير فوق خضارها باسطة جناحٍ في شرقها وغربها.
- أحسست ارتحت جداً.. وأنا سعيدة لرؤيتي ذلك.

- فعلاً مرتحة نسيت كل ما كان يشغلني من هم.. أشعر بإشراقة جديدة..
هالة من السعادة والثقة تحيط بي.. أنا ملكة اليوم.

زفرت حميدة بغيظها المعهود، زمت على شفتيها وأكملت في نفسها:

- ونحن الوصيفات أليس كذلك؟ بنت العاهرة.

ثم أردفت حميدة:

- سيوصلك السائق إلى البيت.. لا تجهدي نفسك حتى يرجع جودت
غداً وستكونين بصحة أوفر.

تخللت أناملها شعرها الحرير الذي انساب على جبينها فزاده تألقاً وجمالاً،
أضرمت الحريق في قلب غريمتها وأشعلت نار الموى بإبطها الذي بان
من فرجة الفستان.. وبساقيها اللذيتين كقصب السكر، رأت حميدة في
صفية ما لم تره طيلة فترة معرفتها بها.. هل انتقل إليها عدوى المثلثات أم
أن البويرة مسحورة فطاش بصفية ما طاش من نشعتها؟

أرسلت صفية عينيها للسقف في شرود ثم داعبت السلسلة المتدرية في
الوادي المحفور في صدرها الذي يتقدّم منه ثديان ناضجان كريمان.. تتكلم
بتأنٍ وهدوء وراحة.. وأنوثة هائمة وبلسان يتحرك غنجاً.. حتى استسلمت
جفونها لإغفاءة إجبارية، قاومت الرخاؤة بهز رأسها عدة مرات.. أعانتها
حميدة على الوقوف ثم نادت الخادمة لإخطار السائق بإحضار السيارة..
وعندما رأت صفية قد استسلمت للنعاس احتضنتها وألقت ذراع صفية
حول رقبتها وقررت أن تذهب مع السائق لتضمن سلامتها وصوتها وهناك في
بيتها ستتدبر أمرها مع خادمة البيت.

البصرة «الهارثة»

—1932—

في صباح يوم هادئ.. كان موكب صغير قد استقرّ أمام بيت السيد سامي يتتألف من أربع سيارات سوداء فاخرة، عندما نزل صاحب العمامه السوداء بوجه عابس وعينين متهدّمتين زادته رهبة على رهبة.

استقبله السيد سامي بحفاوة ثم أدخله إلى الديوان الفخم الذي تغيّر كل أثاثه بعدما أغنته أموال الوافدين إليه وأصبح رجلاً يُقدّس سره في كل مكان.

اتخذ الضيف مجلسه على الأريكة التي تتوسط أريكتين خشبيتين في وسط الديوان.. وجلس السيد سامي على الأريكة اليمني باحترام، أما الحراس فمنهم من انتظر أمام باب الديوان ومنهم خارج الدار.

كان حديث مهم يحمل في طياته سرية تامة ولا يقبل التأجيل.. من خلال كلمات الضيف الذي تطرق إلى أمور المملكة.

أما السيد سامي فنزل عليه صمت الكهوف وهو ينصت بوجل واهتمام للضيف المهم:

- بعد ثورة العشرين خان الملك فيصل العهد بیننا.. قمع انتفاضتنا وأهلك رجالنا.. وقع معاہدة سلام بینه وبين بريطانيا ولکي يحمي الموصل من تركيا رضخ وبكل دناءة لسياسة لندن.. بعض مراجعنا الدينية رفضت سياساته وحتى إيران رفضت الاعتراف بدولته.. بريطانيا تضغط على الملك لکي يوافق على سياستها في العراق ومواجهة الانتفاضة في الوسط والجنوب ضد الانتخابات.. ومهمازيل الملك التي تستهدف رجال الدين الشيعة على الوجه الأنصب.. لا نعتقد بأن الملك فيصل سيطّول بقاؤه.. عامة سیتھي قریباً ولكن القادم هو ابنه غازی.. وهذه العائلة لو استمرت بالحُکم فإنهم سیبیدوننا نحن السادة، من ينسى لقاءه بالسيد الخالصي عندما قال له السيد «إننا نبایعك على العراق، على أن تسیروا بالحكم سيرة عادلة، وعلى أن يكون الحكم دستورياً نیاً».. وأن لا يتقدّم العراق على عهدهم بأية قيود أجنبية».. ووعده الملك خيراً، كما في كل زياراته عندما يقول للناس شعاره البائد «اللّٰهُ وَالْوَطْنُ لِلْجَمِيع».

- نعم وأتذکر جيداً قبل سنوات عندما ألقى كلمته في المدرسة الجعفرية «بأنه وعد بإنتاج سياسة التسامح والمحبة وقال إنه لم يأت إلى العراق للبحث عن عرش أو فخر وإنما غايته خدمة العراق.. ولو لا إلحاح أصدقائه ومجموع الأمة العراقية.. لما خطط في باله أن يأتي للعراق، وأن كل أعمال النهضة التي قام بها أفراد أسرته ليس بمطمع في شيء وإنما ابتغاء لوجه الله.

سخر الضيف وضحك بصوت عال ثم أحضر صوته فجأة قبل أن يردف في أمر هام:

- وقد صدّق العراقيون به، يستخف بعقولهم، هو «يزيد» الحقيقى.. إنه صورة طبق الأصل لقاتل «الحسين».. والانتقام منه واجب.. سيد سامي نحتاج إلى ثورة تكون الأخيرة ونأخذ بثأرنا المكبوت طوال أكثر من 1000 عام خلت ونحكم بعدها بعترة آل البيت وننهي حكم «بني أمية» للأبد.

- الملك بضاعة متهرئة استورتها بريطانيا لنا.

- لو بات الأمر كذلك سيفينينا الملك.. لن تجد هناك رأساً واحداً يعتمر عمامه سوداء، ألا يكفي أن يحرمنا من حقوق المواطنة ويُشيع فكرة «الأغلبية الشيعية الجاهلة».. وبهذا سيقضي علينا وبعد 100 عام لن تجد من نسلنا شخصاً واحداً يطالب بحقوقنا المغتصبة.. إذا لم نقاوم تطرف الملك فلن تسلم العوائمه من بطشه بنا أبداً.

- أنا لن أتهاون مع سياسة هذا الظالم.. حتى ولو اضطررت أن أضع كل جهدي لإفشال قرارات ومخططات الحكومة.

هكذا رد السيد سامي بحزم.

هنا ابتسم الضيف.. ولوّح عن الرضا بابتسامته للرد.. راق له ما بدر من ردّ فعل من قبل سيد سامي.. ثم مال برأسه حتى كاد أن يلامس وجهه خد الأخير:

- سندعمك.. لدينا ما يكفي من حوزات.. وطلاب، وأناس يساندون كل من يضع يده بيدهنا.. تأجيج الانتفاضات.. الفتواوى وكسب أكبر عدد ممكن من مقلّدين ومراجع.. حال إصدار الفتوى ولن يتاخر الشعب في التلبية..

وسيُلِّبون بكل فخر فتوى مرجعهم بلا شك.. نعلم بأنك تغلغلت ببركة آل البيت في نفوسهم.. يحلفون باسمك ويغدقونك بالعطايا.. كل هذه الأمور قد نصبتك شخصية دينية لا يُستهان بها.. كان الخالصي يقودنا قبل نفيه بحكمته ووقاره.. وإذا فقدت شيعتنا المرجعيات فسيتشتتون كما تشتت بنو إسرائيل، لدينا أفكارنا ونسعى إلى أن تُطبق.. ونحارب انتشار أفكاربني عباس والأمويين.. هذا الملك لا يرحم وقد يهلكنا، فكما تعلم الأوضاع الخارجية متقلبة.. تارة مع بريطانيا.. وتارة أخرى مع إيران، وتركيا، أتاتورك بعد إلغائه الخلافة الإسلامية وإعلانه الدولة العلمانية صعد نجمه لدرجة أن أطاعه امتدت لانتزاع الموصل.. وإيران طالب بجزء من شط العرب وها أهداف إن تتحدد مع أهدافنا لقضينا على الملك من الداخل وعلى دولته المدنية الحديثة وجيشها بالكامل.

- لقد نجح الوغد في نيل الاستقلال وكسب وذ الشعب.

قَالَهَا السَّيِّد سَامِي بِوجُومٍ كَبِيرٍ.. وَلَكِنَ الصِّيفَ قَلَّ مِنْ أَهْمَى هَذَا الْمَوْضُوعَ قَائِلًا:

- لم يكدر لينال الاستقلال لو لا النقاشات الصعبة والحادية مع المندوب السامي «هنري دوبس» وكم من مرة تأزمت العلاقات بين البلدين.. سيد سامي علينا بضرب أي حزب يحاول أن يملك أيديولوجية وطنية تريد أن تتشعب بين الناس كـ«حركة الأهالي» التي تسعى الآن لتركيز دعائمها في الداخل.. ولا تنس أيضًا أن هناك مشاكل مع الأكراد.

- الأكراد؟ - تساؤل السيد سامي - ثم أضاف مردفًا:

- لا يربطنا بهم شيء.. يريدون استقلالية إقليمهم عن العراق.

- إن التحدوا مع بريطانيا لربما سينالون الاستقلال.. ولكن قضيتم قد طغى عليها اليأس بسبب موقف بريطانيا منهم، سيد سامي إن تحالفت الأحزاب وتشعّبت جذورها فلن نطول شيئاً من السلطة.. وسيركلون بنا إلى مزبلة التاريخ.. لا أحد مُطلع على مذهبنا، إننا نحتاج إلى تصدير ثورة باسم الإسلام وفتح باب تشيع واسع كما حدث في العهد الصفوي الذي قطع دابر السنة وشيعت العباد في إيران.. فالناس إن أجيّتهم باسم «الحسين» فلن تتوقع ما سيتّبع من هذا البركان الشائر من عواصف.. لدينا من نعتمد عليهم بالسلاح والمال.. انظر إلى اليهود.. مثلهم في مجلس الأعيان العراقي «مناحيم دانيال» ثم حل محله ابنه «عزرا مناحيم دانيال» كعين في مجلس الأعيان من هذه السنة المشؤومة.. نريد أن نضع يدنا بيده وفي كل يد كل سيد له شعبية ومؤهل للقيادة.. فلا تدرِّي غدًا من سيحكم ومن سيظهر لتوحيدنا بمباركة مخلص الزمان «مهدينا المنتظر».

مدّ يده بيده سيد سامي فشدد عليها ليتم الاتفاق بينهما على قدم وساق.

بعد ستة أشهر كانت صficّية قد بلغت ذروتها من الجنون.. جنون الإدمان.. تلجمً إلى حميدة دائمًا لكي تفيض عليها من خيرات البودرة وتغدقها هي بدورها مبلغًا من المال. فكل ما يهمها هو مزاجها.. تلك البودرة الكريستالية البيضاء لا يقاوم النظر إليها دون التهامها.. تفرغ محتواها على يدها ثم وبشمة واحدة تعرف كل شيء ويستريح رأسها من الضرب.

بلغت مرحلة الاعتماد على استئشاشها.. كلما حاولت التخلّي عنها فشلت.. فقد أصابها أعراض الانسحاب الذي لا مردّ من أمره. وصل بها أياًً أنها باتت تتسلل إلى حميدة لإعانتها كمية ولو صغيرة لحين رجوع زوجها وينفحها بالمال كالمعتاد.

حميدة التي كانت تمقتها بدأت ترتاح لما يحدث لصفيقية الآن.. تتلذذ من رؤية صficّية قد ضاعت في متأهات الإدمان.. وأحسست بأن الوقت قد حان لعرضها على السيد.. فهو قد طلبها له ما أن تصلك صficّية إلى مرحلة الإدمان الحقيقية.. طلبها لكي يعرف من رحيم عسلها وينهش لحمها.

رّحّب السيد بالفكرة بعد أن أبلغته حميدة في زيارة خاطفة له بأنها تؤُدِّي إحضارها إليه.. ووصّاها بالتريّث حالما يرسل سارية وابتها ومعصومة إلى منطقة القرنة التي تبعد نصف ساعة عن الهازنة.. لكي يختلي بالأنشى الجديدة.. كما كان يفعل دائمًا عندما تأتيه امرأة غلبه الإرهاق أو أمر أعاد علىها لذّة العيش.. ويتيح له فعل المتعة ثم تتسع الأفعال إلى ذروة الرذيلة.

كانت معصومة في هذه الأثناء تسترق السمع بحذر واهتمام.. قبل أن تلتقط أذناها اسم زوج صفيه - جودت بيـك - الضابط الذي كان يوـمًا مسؤولاً في أمن الهازنة.. قبل أن يشغل منصب أـكبر والانتقال إلى عمله الجديد في مديرية أمن ميسان.

سمعت معصومة كل شيء، قبل أن يتنهي اللقاء بين حميدة والسيد، ابتعدت بسرعة عن الباب ولبدت داخل المطبخ وهي تسمع وقع خطوات السيدة نحو الخارج لتعود أدراجها مع السائق إلى البصرة.

ظهر فجأة أمامها كعفريت.. انتفضت وكأنها رأت شيئاً.. حدّجها بنظرات ثاقبة وجامدة.. لا تخلو من حقد، طال وقوفه أمام باب المطبخ، زادها ارتعاباً.. تحاول جاهدة ألا تفضح أمامه خوفها.. تشعر أنها قشة هزيلة، لم ينبع السيد بكلمة ولكنه حرّك جذعه بهدوء ومشى إليها بخطوات بطيئة، ثم رفع يديه وأمسك بقوة كتفها كفك مفترس يمسك بضحيته.. أو جعها وكأن كهاشتين قد أمسكتا بكتفها وستخلعه لا محالة.

قال:

- أنا السيد سامي.. هذه القرية عبدي.. كلها ملكي.. لم يعاني إنسان حتى الآن على بلوغه هذا الجاه وإن فكر أحد هم و فعل فسافنه لا محالة.

كانت جبهة معصومة تتفضّل عرقاً غزيراً، وببدأت الرجفة تأكل منها وتنشر فيها كما تنشر النار في الهشيم.. زاد من الضغط وكأنه يُفرغ فيها شحنات الخوف.. مركزاً عينيه في عينيها:

- إن فكرت بالهروب من هذا البيت فلي رجال سيطرونونك ولو اختبأْت في عرين الأسد.. أيتها العبدة.. حينها...

انتظرت هي بفارغ الصبر لتعرف ما بعد الكلمة «حينها»...

وعاجلها:

- سأقتلك.

كانت الكلمة الأخيرة كالنصل غرزها في منتصف فؤادها، انقضت رُعباً.. قبل أن يتحول عنها مبتسمـاً.. ويرتقي الدرج المؤدي إلى غرفته بهدوء بارد.

لم تكن حال وتصرات صافية لتعجب زوجها - جودت بيـك - بسبب تركيزها القليل والمشتت الذي بات واضحاً جدًا.. تغيرت ملامح وجهها ولم تعد تلك الغادة والفاتنة التي تزوجها قبل سنين.. لا فاتنة ولا غادة كما اعتادها من قبل.. فقد انطفأت نضارتها بشكل ملحوظ.

وفي لقائه السري المعتمد في أحد بيوت حميدة.. أخبرها بكل ما شاهده في الفترة الأخيرة على زوجته من تغيرات مقلقة.. أخافت حميدة قلقها وارتكابها، خافت من أن تكون صافية قد وشت لـ «جودت» عن أمر تعاطيها للبودرة.. سكتت.. تراقب ردة فعل عشيقها.. لم تطمئن حتى سلت الكلام من فمه.. عندما أخبرها بجهله بأسباب التغيرات المفاجئة التي ضربت زوجته فجأة.. وما إن تأكدت حميدة من أن «جودت» لا يعلم شيئاً عن زوجته، ارتاحت واطمأنـت بأنه غافل عن كل أمور الأحداث.. ثم قالت بثقة:

- لا تقلق فهي لم تتعود غيابك بعد.

- سأعرضها على الدكتور.

وكان شيئاً لسعها.. انتفضت قائلة:

- لا تحتاج لكل هذه الضجة هي بخير، عندما تتعود على غيابك سوف تعود لوجهها نضارته.. لا تدللها لكي لا تنقلب عليك.. فالنساء ما إن يرین دلال الرجال البادخ عليهم سوف يتربّن على واقعهن.. أنا امرأة وأعرف النساء جيداً.

ثم مسكته من تلاييه وسجّبته إلى غرفة نومها قائلة:

- أنا أريد أن أنسى البغل الذي في البيت.. وأنا معك.. وأنت الآن ترهقني بعاهرة.. أنتظرك لتأتي في كل شهر مرة لكي تعوضني الحرمان من الحب... كفاكَ الحديث عنها.

قبلت شفتيه ثم نزولاً إلى صدره، ضمت أصابعه في كفيّها ثم همست في أذنه:

- أعشقك في الدقيقة ألف مرّة.

التمست البهجة في عينيه، رأت قليلاً من الشرود قد غلّفه.. فتحاملت على نفسها بالاحتفاظ على ابتسامتها.. عبست كما تعيس الأنثى عندما رأته في وضع الجمود.. أشاحت بوجهها في دلال، فلامس ذقنها في حنو حتى أردف:

- أنا أيضاً أحبك ولكن لا يجب أن أهملها.

جاء صوتها مرتويًا بالتزمر:

- لم أقل لك أهملها، إنها فقط قلقت عليك.. سفرك الجديد عليها لم تتعود أن تفتقده لشهرين، تتأثر كما باقي الإناث ولكنها ستعود كما كانت.

قبلته من شفتيه حتى أثارته، فدخل في صراع مع أنوثتها ونحشها، لكنه لم يؤلمها ولو مرة.. كان يمس أصابعها الناعمة الواحد تلو الآخر.. ومرر أصابعه على ساقيها.. يمس وجهها ويتابع انحناءات أذنها ودائماً حول شفتيها بأصابعه الرقيقة.. أدارها.. يعلم جيداً أنها تحب التدليك.. فدلّكها بمفصل أصابعه على عمودها الفقري. يرى انسياط شعرها على ظهرها كنهر من الظلام.. خلع آخر قطعة حريرية من جسدها.. وكان هواء الليل بارداً على جسدها العاري.. فارتخت شاعرة بالخدر يأكل كل جزء منها.. فألقاها على الفراش ثم غرقا في نشوة عميقة.

عاد وقت الفجر إلى داره .. يتربّح من السُّكر .. فكان الظلام والسكون يخيمان على أرجاء المكان، قضى ليلة حمراء مختلفة عن باقي الليالي وكأنه ضاجعها لأول مرة في حياته.. كانت تتساقط خطواتها في داخله كغير الأمنيات، اخترقته كرمح ثقب الفضاء.. شامخة.. فاتنة بسحرها.. وعطر جسدها حتى كان يتموج من إبطيها بتكاسل.

كانت العتمة تغلف الصالة فأشعل نورًا خافتًا، تمشي إلى المطبخ فأطلّ برأسه على الحادمة.. فرأها غارقة في النوم فأغلق باب المطبخ بهدوء.. ثم عاد إلى الصالة وجلس مرهقاً بعض الشيء.. أشعل سيجارة، واسترخي.. أرجع رأسه إلى الوراء دقائق وشهق براحة.. ثم اشتهرت نفسه أن يأخذ كأساً من ال威يسكي من بار البيت.

مسح شعر رأسه بيده ثم قام نحو البار.. صبّ كأساً وارتشفها بسرعة ثم الثانية أمّا الثالثة ففضل شربها بتأنٍ.. رجع إلى مجلسه في الصالة وشرد لحظات في عمله الذي تغيّر فجأة.. لم يكن يريد أن يترك البصرة.. ولكن منصبه الجديد يُحتمّ عليه ذلك.. سيعقى على الأقل سنة حسب ما ينصه قانون الخدمة.

صح قد خسر المصدر الذي كان يكسب من خلاله أموالاً وهدايا تأتيه من وجهاء العشائر الذين يغدقونه بها في كل وقت، لقاء إدخال بضائع مهمة كانت تأتي عبر الحدود.. مختقة الكمارك.. كان يحمي مصالحهم.. ولو صحت له الظروف لسي نسائهم أيضاً.. ما المانع من ذلك؟ ولم ينس تهاونه في تهريب المخدرات التي كانت تدخل من إيران «التياك» الأفغاني.. الذي ينتشل الفؤاد منه قبل الرأس.. ويعرق السوق السوداء بشتى أنواع البضائع المهرية بفضله وبإسناد من «رفعت بيك». سيطر عليه التعب وتحامل على قدميه لكي يرتقي السلام الحلوذنية التي تقويه إلى الطابق الثاني من الدار، متى توصله قدماه إلى الغرفة ليتخلص من بنطاله وقميصه.. ويرتدى بيجامته الحرير ويستلقى بقلبه المتهاك بجانب زوجته سلام.

أمسك مقبض الباب الذهبي وأداره ثم دفع الباب بهدوء، تفاجأ من النور يشتعل.. تغيرت قسماته ورفع حاجبيه مستغرباً.. احتلّ أساريره شيء من الهم.. عندما دخل الغرفة ورأى صفية تحضرن طاولة المكياج منكبة على وجهها بلا حراك.. أسرع إليها كالقذيفة رفع رأسها وبدأ يهزها برفق قبل أن يلاحظ غبار البوودرة على أطراف أنفها وملطخة خدتها بكثافة.. كانت.. قد فارقت الحياة.

- ماتت؟

قالها وقد جحظت عيناه.

- زوجها بعث رسولاً من عناصره إلى زوجي ليبلغه بالأمر.. ونحن ساعدناه على دفنها.

- متى حصل كلّ هذا الكلام؟

- قبل أسبوع.. وما إن فرغتُ من واجباتي حتى جئت أخبرك.. ولا سيما أنك كدت تتحرق لاتهامها.

اضطرب السيد وتصاعدت أنفاسه في صدره ولكنه يحاول ألا يُظهر أمام حميدة سوى رباطة الجأش.. ثم استطرد:

- اسمعي ما حدث لن يمر على خير، زوجها ليس برجل سهل، في هذه الفترة بالذات ستتوافقين عن زياري حتى إشعار آخر.

ضررت حميدة بسخرية على صدرها وأردفت:

- مولاي، ألا أزورك وآخذ منك بركات آل البيت.

قالتها بدلع بالغ حتى كادت أن تدخل يدها في سرواله فمنعها مبتعداً
بضع خطوات.. عبس وجهه وضاقت روحه منها ثم قال:

- ستروريني لكن أنا من سيحدد الوقت.

تصاعد القلق في وجهه، الدماء كادت تغادر وجهه، على عكس تلك
العاهرة التي شففت بموت ضرّتها.. سأها وكأنه يريد أن يستعلم شيئاً
مهمًا من حميّة:

- هل أعطيتها الكيس كله؟

- أعطيتها بإلحاح منها.. في أيامها الأخيرة كانت مجونة جدًا وكادت
أن تفضحني.

- أتعرفين معنى أن يجدها زوجها منكبة على وجهها وملطخة بغار
البودرة؟ زوجها ضابط أمن وليس مواطنًا عاديًا ..

قاطعته:

- لا تقل لي بأنه سيتحقق في الأمر.

- هل أنت مجونة، طبعًا سيتحقق ولن يترك الأمر وشأنه.. بعد أن
يتتحقق ويكشف الفاعل.. لن أضمن ماذا سيتّبع عن ذلك من عواقب
وخيمة.. خني بنفسك.

استنكرت حميدة ما قاله السيد حتى بدأ القلق يخمش وجهها وصدرها:

- هل تقصد أنها جريمة قتل؟

هز رأسه بنعم.. وفضل التزام الصمت.. فلا شهية تبقّت للكلام معها..
فهذه العاهرة أصبحت مملة بالنسبة له.

- استنشقت الكثير.. وماتت.. لا أعتقد ستمر الأيام دون متاعب.

السيد لم يستطع قتل قلقه من الداخل.. لم يكن يتصور بأن الأمور ستصل إلى هذا الحد بسبب غباء حميدة.. التي كانت كالطائر الجميل فانقلب فجأة إلى غراب أسود مشؤوم.. جلبت له خبراً لا يدرى كيف سينجو منه..
ومن قبضة زوجها ضابط الأمن.

عليه أن يقطع زيارات حميدة قبل كل شيء.. وإلا فزياراتها ستؤول عليه بالخراب.. السيد لديه الآن أمور أهم.. اتفق على تنفيذها مع ضيفه وعليه أن يشغل فكره بالتعامل مع التغييرات.

تلفّحت حميدة بملاءتها لتغادر وقد طغى الوجوم على الاثنين.. كان ذلك قبل أن تبتعد معصومة عن الباب وتتنصل بعيداً بعد التنصّت.. لبّدت كفارّة مذعورة تهرّع إلى جحرها.

انبلَّ الفجر، وبدأت الحياة تدب من جديد في يوم جديد.. يخرج الناس لطلب الرزق، بسطاء يخرون للعمل اليومي ثم يعودون مع حلول المساء إلى دارهم كشمس مرهقة تنهي دورتها اليومية في الكون الواسع، لكي تؤوب مع المساء المظلم في إغفافتها المعتادة.

في بداية هذا اليوم البهيج خرج السيد مع سائقه الجديد، في سيارة فارهة وفخمة.. وفُرِّتها له جمعية دينية بإيعاز من السيد الحسيني، وكان سيد سامي على موعد مهم مع الحسيني لبحث أمر طارئ وضروري لا يقبل التأجيل، توجه إلى البصرة ليلتقي به ويتباحثا في أمر إضراب وتحريك الناس بفتاویٍ ستتصدر من رجال المرجعيات الدينية المهمة قريباً.. ويجب تهيئة الأجواء الخطابية لدفع الناس إلى الاستمساك بمطالبهم.

وصل السيد سامي إلى فيلا السيد الحسيني في البصرة.. تلقى ترحيباً واسعاً من مُضيّقه.. دخلا الديوان ثم اخذ مجلسه قريباً من مجلس السيد الحسيني على الأرض المفروشة بأرقى أنواع السجاد الفارسي.

دخل الخادم وسقاها القهوة، ثم انصرف تاركاً دلة القهوة والفناجين على الخوان، كانت نبرة الحسيني النشطة تعكس مدى ارتياحه من اللقاء، وعلامات السرور التي كست وجهه كانت تشي بذلك.. فأكسب سيدسامي طمأنينة وثقة أكثر.. نجح الحسيني عبأته ثم حرك عمامته السوداء من على رأسه وحک شعره قليلاً ثم أبقى العمامه مرفوعة في الهواء قليلاً وكأنما ليدع الهواء يتخلل شعر رأسه، ثم أردف:

- دخل العراق اليوم إلى عصبة الأمم المتحدة، ونوري سعيد استقال.. وأمور الوزارات باتت بيد ناجي شوكت الآن، إن نجح ناجي في إحلال الأمن فلن يكون ذلك لصالحنا أبداً، الفوضى حالياً في بداياتها.. عممت لتشمل مناطق واسعة من العراق، بريطانيا بدورها تبارك وتدعم العشائر والأقليات لأن ذلك سيساعدها على تنفيذ مخططاتها السياسية، وستظل معارضتها لسياسة الحكومة العراقية قائمة من خلال إضعافها عن طريق الجيش وافتعال الأزمات، ولا سيما موقف العشائر من قرار التجنيد الإجباري الأخير الذي تفرضه المملكة العراقية على أبنائنا، وفي حال لو طبق هذا القرار المشؤوم فالتمرد والعصيان ورفع السلاح بوجه الحكومة وارد ولن نتراجع.

- عشائرنا معروفة بنزعتها البدوية، ونشاطها الاقتصادي غير مستقر.. ويميلون إلى نظام يفتقر إلى القوة، ولأن الجيش سيهبي للسلطة فرصة ممارسة مركزيتها، فعلينا أن نقف بوجه التجنيد لكي نُضعف من شوكة الحكومة.

- يجب إقناع الناس بأن قانون التجنيد سوف يسحب الرجال من الأراضي الزراعية، وبالتالي فإن الإنتاج للأراضي سيفقد.. سيدسامي أهالينا في الجنوب يجب أن يقتنعوا من خلالنا بأن هذه الحكومة لا تخدم مصالحهم وأن دينهم في خطر.. وخطوات الملك تهدف إلى إضعاف الشيعة.

مال الحسيني برأسه وهمس:

- بريطانيا تدعمها، ولا سيما أنها تدعم عشائر المتفك، وتدعم أيضاً أبرز رؤساء الغراف «صكبان العلي» و«حنون العبيد» وأيضاً هذه العشائر لها علاقات بارزة مع بريطانيا وهذا الشخصان لهما رواتب مخصصة من لندن ولن يخذلانا في أن نتحد ضد الملك.

- إذن الانتفاضة تتضرر الإذن مِنّا.

- الأسلحةستمر عبر الكويت إلينا، أسلحة بريطانية جديدة وبالتنسيق مع أمراء الكويت، وإيران داعمة لنا أيضاً في خطة ردع الحكومة وإسقاطها.

- إن لم نؤجج هذه الأضطرابات، فالنار ستأكلنا.. يجب أن نسدد الضربة جيداً قبل أن تخمد هذه النار ونكون في خبر كان.

- سيدسامي لديك الآن من الأنصار ما يكفي.. وفتاويك مهمة جداً لسند الانتفاضة، أنصارك يقدسونك ويجلونك.. ليس فقط في الهاشمية بل في مناطق كثيرة من الجنوب.. ازرع أول بذرة للخلاص لشيعتنا،

وأخبرهم أن شيعة الحُسين في خطر - ثم شدّ قبضته - أخبرهم بأن أحفاد يزيد باتوا يزرعون منهج الحقد وسيحصدون رؤوسنا.

كان لقاءً حامياً اشتدت فيه لهجات ولعنتاً قدفَ بها على الملك وحكومته، واستمر اللقاء ساعات طويلة من التخطيط على أن يتم تفجير الخطة في ساعة معينة، حتى قطع وقت الغداء عليهما الكلام، تناولاً الطعام ثم تكلما بأمور أقل أهمية، وما إن فرغوا من الطعام حتى غادر سيدسامي بسويعات فيلا الحسيني، حاملاً منه أدوات بفتاوي كانت قد أعدّت ودرست من قبل أعلى المراجع.. يصحب خطواته بمباركة وتأييد موقعاً من أغلب المراجع في إيران والعراق.. وبلغ كبير من المال، كانت قد دخلت في حوزة السيد سامي هبة السيد الحسيني له.

ولم تمر أيام على لقائه.. حتى كان صوته يصدق بين أنصاره، شدد على جماعته بنشر خطابات التحرير في الحسينيات مستغلاً شعائر يزيّنها اسم - الحُسين - مستشهداً بثورته التي تأمر عليها يزيد لإفشاها، كان ينادي بانتفاضة تضم ظهر الحكومة الكافرة - على حدّ تعبيره - ثم أخبرهم بأن آل البيت نادوا بالعدل والمساوة ولن يرضوا بالجور المُسلط عليهم.. ومن يرفض ذلك فعليه لعنة آل البيت إلى يوم يُبعثون.. فكيف يرضى عنهم الحُسين.. وقتلته يتجلون أحراجاً، ويعيشون في الأرض فساداً.

واشتَدَّت نار الفكره وبلغت الزعامات العراقية التي جأت لإثارة الثورات والتمردات العشائرية في مناطق الفرات الأوسط وإلى الجنوب العراقي، التي صممت ونادت بإسقاط حكومة الملك فيصل الأول.. والمجيء بحكومة أخرى موالية لها لتبسط نفوذها على الوضع السياسي القائم، فاشتدَّت المصادمات وأصبحت العشائر أكثر عصياناً مستندين على فتاوى أوجبت الغضب المكبوت في الصدور وأشعلتهم نسمة على نسمة على هذه الحكومة.. فكانت الخطب في الحسينيات لها تأثير كبير على دوافعهم، حتى تقدَّمت الدوافع الدينية على بقية الأهداف، فاقتنعوا من خلال سرور الخطب الدينية بأن يؤمنوا بأن الحكومة تسعى للانتقام من شأن العشائر والتهوين من مكانتها.

استيقظ الناس في لواء البصرة على فتاوى أخرى تختلف عن سابقتها تندد..
الإطاحة بالحكومة العراقية من دون أي تأخير، وباتت حركات العصيان
تمتد وتكبر كالنار في الهشيم، في ناحية المدينة - وقضاء القُرنة - في البصرة
شاركت بكل ما أوتيت من قوة بشرية لتنفيذ أوامر المراجع الدينية..
حيث بدأت في هذه المناطق حركات العصيان قائمة على قدم وساق،
بينما المحاكم العرفية كانت مهتمة في تصفية قضايا الشائرين في الناصرية
والديوانية، ومتى زاد من النار هبّا هو رفض الملك الاستraham المقدم من
وجهاء العشائر بإعفاء أبنائهم من التجنيد الإجباري.. فزادت من ثورة
العشائر ولكنها كما بدأت بسرعة، تمت إبادتها بالسرعة نفسها.. من قبل
السلطة التي أبدت غضباً عظيماً عندما ضبطت لدى العشائر كميات كبيرة
من البنادق البريطانية كانت قد هربت إلى تلك المناطق المتنفسة.
تلقي - جودت بيك - أمراً بالتوجه إلى الهاوية لإخمام نار العصيان الذي
اندلع فجأة.. لكونه عمل هناك لفترة طويلة ويعلم خبايا وأسرار ناسها،
وما تخفيه صدورهم من أمور.

وأول عمل قام به في -القرنة- كان حضوره في اجتماع طارئ.. في ساعة متأخرة من الليل مع مدير الأمن ومدير المخفر - سعد التكريتي - كانت الجلسة ينضم إليها الهدوء ولكن سرعان ما نفضهم ورُوّعهم إطلاقات نارية أطلقتها سيارة مجهولة سللت بسلام بعد أن تركت جثث عدد من القتلى لحراس المخفر، تحطمَت على أثر ذلك الهجوم صخور وجوه الضباط الثلاثة ومن معهم، حتى أمر المدير مستجبياً لفقد كان يخوض بصدره وببروس تطحنا نفسها.. بشن وابل من حملات الاعتقالات على الغوغائيين.

زاره في ديوانه، فاستقبله السيد سامي بحفاوةٍ أكبر مما كان يستقبله قبل أن يبرق نجم ولايته في المنطقة كمراجع دين.. وواساه على مأساة زوجته أيضاً، هذه الزيارة المفاجئة التي قام بها - جودت بيك - أربكت السيد في البداية، ولكن ما إن شم رائحة السلام حتى احتوته الطمأنينة وجلس مع الضابط ينصلح للموضوع المهم الذي جاء به.

- لطالما اشتقت إلى اللقاء بك مجدداً سيدنا، ويسعني أن زيارتي جاءت في مثل هذا الوقت العصيب.. وسأكون ضيفاً على مخفر الهاشمية حتى إشعار آخر.

- لا أبداً.. أعلم أن البلد يمر بوضع حرج ويعلم الخالق أنني أحاروّل جاهداً أن أهدى النّفوس قدر المستطاع.

- يريدون عيناً أن يلغوا التجنيد الإجباري، وإبقاء المملكة ضعيفة، لا أعلم كيف يفكرون، ولكن الأمور تسير نحو الأسوأ.. الملك جاد في إخماد نار الفتنة ونحن بدأنا بحملات الاعتقالات التي ستتساعد في القضاء على المتمردين.

لم يعقب السيد.

بل ظلّ ينصت ظاهريًّا، وفي سرّه يلعن الملك وأبا الملك والضابط بل وكل أجهزة الدولة.

- سيدسامي نريد أن تعاوننا في هذا الموضوع، فكما نعلم أنَّ لك سلطة مطلقة على هذه المنطقة والناس يتزمون بفتاويك والسلطة المركزية في بغداد واثقون منكم وبمقدرتكم على إقناع المتمردين بالكف عن التمرد والعصيان.. وسننور بذلك إراقة المزيد من الدماء التي طالت وستطول عناصر الحكومة والشعب.

- سأعمل جاهدًا لكي أساهم في تقليل المظاهرات، فأنا لا يعجبني أن أرى دماءً تُراق لأمورٍ كان من الممكن أن نحتويها بالعقل.

لم ولن يصدق السيد في الحديث البِّتَّة، يناور كعادته، يريد أن يدفع هذا الضابط بعيدًا عنه.. بلسان ذرب وروح متعطشة لقتله، ولو طالت يداه لفتكهُ ودُكَّ عنقه.. ينزِّ سُمُّهُ في جسد كل شخص يقف في طريق مجده، يملك روحًا فاسدة كمدرّب البيض فقصَّ قبل أوانه، أو كقطعة لحم فاسد، فلم تُبِقْ وقاحتاته نقطة رحمة في نفسه المريضة.. لم يخلق من طين.. بل من فضلات الشياطين، فهو كإبليس يتكلم مع الناس على هيئة رجل دين يعتمر عمامة سوداء.

بعد ساعتين غادر الضابط الديوان، أسرع من خطواته ورافقه السيد إلى الخارج.. قبل أن تنسحب معصومة من خلف الباب وتغيب كالفأرة في المطبخ.

في اليوم التالي:

كانت شمس الظهيرة قاتلة، حينما فَكِّرت معصومة أن تستغل غياب السيد الذي برح الدار إلى مكان مجهول للقاء مهم بينه وبين أحد المراجع من ذوي النفوذ المهمة، أخبرت سيدتها بأنها ذاهبة إلى السوق لشراء حاجات ناقصة تحتاجها للوازم المطبخ، لم تمانع سارية التي كانت مشغولة بتجديل صفيرة صغيرة.. الحالسة في حِجر أمها.. ساكنة، ملتئمة بقضم قطعة من الخبز.. أرخت الأم الصفيرة على كتف ابنتها بعدما انتهت من جدها وقالت:

- لا تتأخرى فالاليوم لدينا عمل كثير.
- حاضر خانم.

لاحت منها نظرة إلى الصغيرة الماdue، فحدجتها الأخيرة بنظرة جعلتها ترتجف حتى ضربت الرعشة أطرافها.. فنظرتها كفيلة بمضاعفة الرعب في داخلها.. كادت أن تقضي على روحها.. فلململت نفسها وخرجت.. انسلت بسرعة خاطفة من باب الدار وفي أذنيها هسيس يقول:

- الأفعى السوداء تنتظرك.

لم تعر اهتماماً بادئ الأمر فظنته مجرد أوهام، ولكن ما إن بلغت السوق الشعبي حتى بدأ المحسين يضر بها كالسوط على جسدها.. كالطرق المستميتة على رأسها:

- الأفعى السوداء تنتظرك أيتها العبدة.. سوداء مثلك.. كأنها توأمك. تناول عبئاً أن تتجاهل الصوت حتى دار بها السوق وكأن ثقل السوق والسماء سيقعن عليها.. تحت الخطى أملأ أن تصل إلى المخفر.. المسافات قمتد ببطوها ولا تقاد تنتهي، وكأن الزمن تغير.. والطريق إلى المخفر يمتد وعطشها يزداد.. وكلما توقفت لشرب زاد عطشها.. تقصد جبينها بالعرق وكلما غسلته زاد العرق وزادت معها حرقـة في بطئها. سلكت الطريق الترابي العاري إلا من الرمال والأشواك.. جلست تحت ظل شجرة استجلاباً للراحة.. ثم عاودت السير.. متعبة ولكنها تشعر بأن شيئاً من الألم قد زال، فأحسست بالراحة.

بعد عناء وصلت إلى المخفر.. كانت قلقة فماذا لو ذهب تعها أدراج الرياح ولم تجد - جودت بيك - مشكلة كبيرة.. فلن يكون بإمكانها أن ترك الدار مرة أخرى دون ذريعة مناسبة، فرصتها الآن لكي تُفرغ كل ما في جوفها من كلام.. أدخلها الحراس إلى غرفة الانتظار.. طلب منها أن تنتظر وسيحضر قريباً من يأخذها للقاء - جودت بيك .. جلست وأسندت رأسها على الحائط تنفس الهواء الساخن من منخرها وفمهما لستجلب راحة مفقودة.

لم تنتظر كثيراً حتى ظهر - جودت بيك - كالشبح من العدم.

كانوا ثلاثة والسيد سامي رابعهم .. يعترون العهائم السوداء، وحاصهم كحاخمات اليهود تغطي وجههم .. تخخل اللحى شعيرات بيضاء تسللت بحكم الزمن .. مضيفةً الوقار لهيئتهم. جلسوا جميعاً في ديوان قصر كبير يحرسه بعض الأشخاص. الجلسة سرية وطارئة لدرجة لا تحتمل التأجيل.

بادر أحدهم:

ـ نشكرك لأنضمامك معنا، وعلى كل ما قدمته من أمور خدمت الانتفاضة. ثم بادر الثاني مربطاً على حجر السيد سامي بهدوء:

ـ كلنا يجب أن نتحدى في سبيل إرساء دعائم الدين الصحيح، وجهادنا ضد الظالمين هو هدفنا.. وإكمال لرسالة أبدية لولانا أبي عبدالله الحسين.

ـ «سلام الله عليه» تتم الجميع، ثم أكمل الثالث:

ـ وهذا كُلنا قد قررنا بالإجماع أن نوليك على أمور العامة من شيعة أهل البيت في الجنوب لتكون مرجعاً دينياً يمثلنا داخل العراق بدلاً من الحسيني .. فكما تعلم لا نستطيع أن نعلن ذلك علينا خوفاً من بطش الملك ولكن سوف ننقلك إلى إيران في حال لو قبلت أنت هذا القرار.

ـ إيران؟

- حفظاً على سلامتك لقد وفرنا لك هناك سُبل العيش الكريم لك
ولابتك وحفيدتك حتى تتحقق الأهداف وترجعون للوطن.

- ولكن!... إيران!... والشاه؟

- الشاه لن يتعرض لك ولا لأحد من رجالنا ما دمنا لا نصر أحداً.. كل ما
ستفعله هناك هو بناء أساس قوي تستند عليه، فتاويك ستنتطلق من هناك،
فأنت لن تستطيع أن تمارس نشاطك هنا وخصوصاً بعد مقتل الحسيني.
الكلمة الأخيرة كانت كافية بتقليلص وجه السيد سامي، فجحظت عيناه قلقاً:

- السيد الحسيني؟

بهت السيد من الصدمة، يريد وقتاً لاستيعاب ما يقال الآن، تبخر الكلام، ثم
وبملاحم تملؤها الإرادة وصوت قوي قال الأول:

- أنت من يجب أن يقود الحشد، هم يعتبرونك سيدهم ويرون فيك القوّة
لجمع شمل الشيعة.. هم بحاجة لرجع قوي.

قال الثاني:

- لقد رأينا ذلك من خلال الانتفاضة.. أبناؤك قاموا بأكبر انتفاضة على
الإطلاق وتقدمت بحمستها على بقية المناطق الجنوبية.

تردد عينا السيد في الحضور ثم قال:

- هذا شرف كبير لي ولكن توّلي مثل هذه الأمور س..

قطّعه الأول وبيدو أنه الأعلى شخصية بينهم:

- سيد سامي... الحسيني خائن.

لم يكن سهلاً ما قالته معصومة من اعترافاتٍ كانت كالشياط ضرب أنف - جودت بيك - فما إن سمع ما سمع حتى صعد الدم إلى رأسه وكَرَّ أسنانه في صمت، فمعصومة باخته بأخبار لم يتوقعها قط، انتفخت عروق رقبته وهو يستمع لها تتحدث عن - صفية - لم يتبالك نفسه، توقد عقله عن التفكير، تحجّرت عيناه وتبسّت أطرافه إلا من الأصابع.. ما إن كورها حتى طاح بقبضته الغاضبة على سطح المكتب ليُصدر صوتاً قوياً ارتعبت على أثره مفاصل معصومة.. وبعث بقلب معصومة إلى الجحيم.

* * * * *

عندما جلب السيد سامي معصومة إلى الدار بغية أن تخدم لهم وتتكلّل شؤون إدارة المنزل، سارع - جودت بيك - وبأمر من مدير الأمن بأن يُجند معصومة بغية الحصول على معلومات تؤكد تورط السيد بانتياءاتها المشبوهة وتعاونه في إشعال الأحداث التي تمر بها البلاد.. وكان يقابلها أثناء فترة إجازتها في البصرة.. وكان يؤكّد أيضاً عليها أن تتحاط من كل خطوة، لأن السيد ذكي جداً ولن تخفي عليه خافية.

اقترب منها قائلاً بغضب:

- معصومة إن كان كلامك كذباً، فسأعلق جسدك في سقف الغرفة..
أقسم بالله.

- سيدني أقسم لك إبني أخبرتك كل شيء.

- لا تعتقد بأني تركت البصرة وأني رحلت عنها للأبد.. كانت العيون
تحبني بكل صغيرة وكبيرة.. وإن كان السيد فعلاً كما قلت لي مشعوذًا
وزير نساء فذلك سوف يكشف حياتك إن ثبت عكس ذلك.

ساعتان مضتا، ولكنها كانتا سنتين.. فلم يكن من السهولة الاستماع
بأعصاب باردة لأقوال معصومة خصوصاً أنها ذكرت اسم زوجته،
وكيفية استدراج حميدة للإدمان كانت ضربة ثانية له، ففي ملامح -
جودت بيك - هول الحقيقة والغضب يتصارعان، سمع كل شيء، وتنى
ل ولم يسمع ما سمع، فالقضية مست آل بيته.. لأن الأحداث خططت
لكي تنهي حياته ومستقبله.. ولكن «حميدة»؟

ومن بعد؟ السيد سامي؟ ولماذا؟

ما قالته معصومة ليس بالشيء العابر، فقد جلبت له سر موت شخص
يُنصحه «صحفية».

غادرت معصومة المخفر بسرعة، قبل عودة سيدها.. تركها -جودت بيك- ترحل.. ولكنها لو تدرك ما تخبيء لها الرمال من فظاعتها لكان بقاوئها في المخفر أرحم.

على رمال الهاڑة الحارقة، قطعت طريقاً طويلاً لعلها تصل بدون تأخير إلى السوق.. فلهيب الشمس الحارقة يحول دون وصولها بسرعة.. ويؤخر تقدمها البطيء.. جلست تستظل تحت الشجرة قليلاً لتعاود المشي بعدها.. تأملُ أن تصلك في الوقت المناسب، تمنى بأن يتأنّر السيد ولا يرجع مبكراً لكي تتقى أسئلته.. قامت ثم طوت مسافة أخرى بمشيتها.. تتخيّط ساقها بتراب الأرض، فيرتفع الغبار ويلوث عباءتها، تمشي كمجنونة حتى نهشها التعب والعطش مجدداً، فأحسست بضرورة الراحة مرة أخرى واتقاء حرارة الشمس التي أهابت وجهها الأسود.

ولم تمانع أن تأخذ قسطاً من الراحة، كقيلولة أخيرة.. تحت ظل شجرة باسقة، بسطت فروعها عالياً، تزين الخلاء بأوراقها الخضراء.

كانت مسيرة وقبل أن تتبه إلى الشيء المتصلب أمامها.. انتقضت كالسهم أفعى سوداء توسط أوداجها المنفوخة دائرة حمراءان كعينين غاضبتين نبتا من نار الجحيم.

همست بفتحيها على غفلة ثم رشقت نابيها في رقبة معصومة، لترفرغ ذلك السم اللعين في لحظة، حاولت دفع الأفعى جزعة وبيد تأخرت وصرخة يأس لم يسمعها أحد، حتى وقعتا على الرمل فتلقت الأفعى ثم انتصبت مجدداً لتعلن عن هجوم ثانٍ.. جحظت عينا معصومة، تكوت لا تستطيع أن تزود يديها لدفع الخطر، فالسم بدأ ينهشها، ثم انتصبت الأفعى تُحدّج في عينيْ معصومة وكأنها تبعث لها برسالة ذات مغزى.

وفي سرعة اخترق أحد أنفابها رقبتها، سخونة في موضع اللدغة، ثم اضطربت أنفاسها مع ضربات قلبها، زاغ بصرها، خدرت أطرافها قبل أن ترمش بعينيها.. تخيل لها بأن الأفعى انشطرت إلى اثنين.. انتابها الغثيان قبل أن تقترب الأفعى منها، والتقطت أذنا معصومة آخر فحيح ستسمعه في حياتها:

- هذا جزء من يحاول الولوج في حياة تابعينا.

ثم لثمتها الأفعى بسرعة في وجهها ثلاث مرات لتقنعها بأن الموت هو الحاضر الوحيد الآن.

- سيدسامي مغادرتك للعراق باتت أمراً ضرورياً.

عقب الثاني:

- كل شيء جاهز في إيران.. وفرنا لك كل مقومات الزعامة التي
ستساعدك في تثبيتك كمرجع ديني.

قال الثالث:

- الدار والمال والأعون، ونفوذك سيمتد من إيران إلى العراق وأيضاً ستحكم
مناطق شاسعة في المستقبل.. وسنعمل على ترسيخ هذه المخططات على أرض
الواقع ولا تقلق من دعمنا لك، سيدسامي العيون باتت تراقبك مؤخراً
ولا سيما بعد هذه الانتفاضات التي قامت ضد الملك وجلاوزته، وسيحاولون
اغتيالك لا محالة.. ونحن في أشد حاجة إلى مرجع ديني يقتدى به بين صفوفنا.

- فجر غد سيحضر أحد من أتباعنا.. لينقلك إلى مكان آمن ومن ثم
تغادر فوراً أرض المملكة إلى إيران.

كان الأمر مفاجأة لم يتوقعها السيد، مغادرته للعراق في ليلة وضحاها، وزيادة العنف
الذي أدى إلى قلة الأمان، ولا شك ستؤثر كل هذه الجريات على مستقبل السيد
الذي يربو إليه.. وبلا شك إذا بقي في العراق فهو هالك.. فالرجل كما قالوا مهم.

مد المعمم الأول يده ويسط شيئاً ملفوفاً على الطاولة، أزاح القماش عن سكين لامعة، مقبضها ملفوف بقطعة كتان خشن ونصبها المشحوذ على حجر، تطلع السيد بعينين تلمعان ولن ترضا رؤية مشهد قتل قريب، ثم قال الرجل الثاني بابتسامة خبيثة رُسمت على شفتيه:

- الحسيني وأنت ستستقلان نفس السيارة، لقد دبرنا أمر لقائه بك صدفة وخططنا له منذ شهر، ما أن ينطلق السائق كما حتى سيتم التخلص منه في منطقة تم التخطيط لها من قبل السائق، فهو قاتل محترف من أتباعنا المخلصين.. ثم سيعود بك إلى الهاوية، وفي الفجر ستقل لكم سيارة خاصة إلى إيران.

- ولكن عليّ تمهيد الأمر لابتي.. فخبر الرحيل سيفاجئها.

- لن ترفض إذا علمت بأن بقاءكم في العراق يهدد حياتكم فهي أم وستعي ذلك - قال الأول -

- الحسيني الآن في لقاء مع أحد المسؤولين، خطة مدبرة لاستدراجه، سيرحضر السائق إلى أمام الدار ليقل لكم في نفس السيارة إلى المكان المقصود، لتشهد على ذبح الخائن.. هذا السكين.. مسموم.

سؤال السيد بخث:

- هل لي أن أطلب شيئاً؟

تبادلت النظرات في العيون متسائلة، ثم أردف الأول:

- تفضل.

- هل من الممكن أن أغرز النصل في الحسيني بيدي.

ابتسمت الوجوه في رضا ولم يعارض أحد على الفكرة.

ها هي السيارة تنطلق بها بعيداً عن حدود البصرة، تحمل رجلين مهمين.. أحدهما رجل أصدقاؤه من الجن والعفاريت، يُسْخِر قرينه في قضاء ما يلتوي من الحاجات، شهرته بذلك تجاوزت المدينة ووصلت إلى أقصى الحدود، وتسامع بها أهل المدن والأريف، حتى أخذوا يسعون إليه زحفاً.

والثاني: رجل دين له صولاته وجولاته مع الدولة لكي يحافظ على الرسالة التي أنيطت به من قبل جمهوره من الشيعة لنصرتهم حتى ظهور إمام الزمان «المهدي المنتظر».. وسيستميت من أجل نشرها بين الأمم مهما كلفه الأمر.

على بعد أميال من البصرة اختار السائق وبحنكة شخص له خبرة واسعة في مجال التخطيط، طريقاً صحراءً مقطوعاً شريانه عن الحياة تماماً، لا يصله إلا الجان والشياطين، لجأ إلى طريق مقفر مسدود بحججة عطل في السيارة، كان الحسيني مشغولاً بالحديث ولم ينتبه لانعطاف السائق إلى

الطريق المهجور إلا بعد فوات الأوان ولكنه لم يشك بشيء، فقد كان مرتبطاً باللقاء المفاجئ الذي جمعه بالسيد سامي.

ترجلا من السيارة قبل أن يبدأ السائق بإصلاح العطل المزعوم.. فانكب بجذعه على محرك السيارة يتظاهر بالإصلاح الوهمي.. وقبل أن يبتعدا بقليل.. فطن الحسيني بتذكير السائق قائلاً:

- لا تنسَ بأن لديك عميلاً اليوم.. إيصال سيد سامي إلى الهاوية ومن ثم تتجه بي إلى النجف الأشرف حيث يجب أن أكون.. أعنك الله على هذا العباء الثقيل يابني.

طمأنه السائق بأن كل شيء سيكون على ما يرام.. وبادر عمله بمحرب شاشات ولطشات توهם الحسيني بأنه يحاول أن يصلح العطل.. حتى ابتعدا عنه.

* * * * *

كان السيد سامي يمشي بمحاذاة السيد الحسيني، بتأنٍ يستمع بخشوع إلى ما يقوله صاحبه:

- سيد سامي.. أنا وأنت نستطيع أن نكون قوةً كبرى.. لدينا من الأنصار ما يكفي لتمهيد ذلك.. وحدتنا كافية لإقامة حزب ينصرنا.. حزب ذكره الله في قرآنٍ ووعلهم بالنصر.. نقيم بعدها إمارة حُكم في الجنوب العراقي ونُطلق التشيع بعدها إلى الدول المجاورة.. يتبعها بلد بعد بلد.. فكل شيء...

هنا تباطأ السيد في خطواته وترك الحسيني يسبقه قليلاً بخطواتٍ ثقيلة.. وبعينين زاجرتين أغمد النصل في ظهر الحسيني وبيد أخرى كتم أنفاسه بقوّة ليمنعه من الصراخ أو المقاومة.. تلقى الحسيني الطعنة فتقلاصت ملائمه، حتى انشت قامته في صدمة، بذهول تأمل دماءه الساخنة، أحس بالدماء وهي تتدفق حول السكين الغائر في لحمه، جثا على ركبتيه فوقف السيد سامي أمامه يرمقه بهدوء قبل أن يكز بقدمه صدر الحسيني ويسقط على التراب فاغرًا فاه.. مرغاً وجهه بالتراب.

جسمه يضطرب ويتبخر ويتفجر منه الدم في قوة كانفجار الماء من الينبوع، الجسم يضطرب ويتبخر، الدم ينفجر ولسانه يضطرب ببعض الحديث في فمه، ثم هداً ذلك الجسد المضطرب، وسكن اللسان المتحرك، وينفخ تفجر الدم.. حتى امتلاء الجو بسكون الموت، والسيد سامي قائماً أمام الجثة كالشيطان قبل أن يعود أدرارجه إلى مكان السيارة حيث السائق كان بانتظاره.

كادت سارية أن يغشى عليها من الأخبار الأخيرة التي جاء بها والدها،
الهروب وترك كل شيء في مكانه، رفضت في البداية ترك الدار فآثرت
الموت فيها ولكن ما ذنب ابنته؟ ستكون كشجرة اقتلت جذورها،
فأقنعها السيد بأن العصيان الأخير للحكومة من قبل الشعب سوف
يجبر لهم ويلات الاعتقال والموت.. لأن الحكومة بدأت بشن اعتقالات
عشوائية على رجال الدين وستطوله لا محالة أيدي رجال الملك.. علاوة
على ذلك فإن معصومة قد وشت لـ «جودت بيك» كل شيء رأته في
البيت.. وأنها كانت تتنصلت على أسرار والدها.. لم تتفوّه سارية بشيء
سوى أنها أدلت بفكّها السفلي إلى الأرض، ربّت على كتفها بحنو يحاول
أن يطمئنها بكلمات رنانة:

- لا تقلقي فلنا دارٌ كبيرة في إيران، أكبر من هذه.. مرجعيات مهمة قد
وَفَرَّت كل شيء وسنكون بأمان بدعمِ منهم.. ثقي في والدك يا ابتي.
دفعها برفق لكي تصعد إلى الأعلى وتلم متاعها لينطلقو ساعة الفجر
ويبعدوا عن القرية إلى الأبد.

في اليوم التالي عندما حلّ الغروب وكاد الليل أن يسدل ستاره على القرية: توجّه - جودت بيك - بسيارته إلى بيت السيد سامي.. كان يقودها بسرعة عالية وقد تطاير الشرر في تلك العينين القاسيتين .. ترتعش أطراfe وકأنه أسدًا غرفَ صدره ببراثنه مزق القلب وأخرج أحشاءه، إنه الوقت المناسب لاستدراج السيد إلى إحدى المناطق الخالية وإفراج طلق ناري في متتصف جبينه، كان يتصرف كالممسوس، صرعته الأخبار التي جلبتها تلك المشوّومة معصومة، وما أن يفرغ من السيد حتى يقضي على أمر حميدة.. كل شيء بأوانه.. كان يجاهد ليسحب نفساً إلى رئيشه، وكان الوجه شاحبًا وکأنه فقد لحمه وبرزت عظام وجهه.. مملوء بدموية الغضب، وصل إلى المنزل ثم ترجل بسرعة من سيارته.. تمّ على سلاحه، بينما كانت الكلاب السائبة تربّق بنظرات مدهوشة.. كانت الكلابجالسة في الساحة الخارجية للدار وکأنها مستأنسة لرحيل السيد، وفي كل لحظة كانت الريح الصفراء تهب فتشير التراب الجاثم على الأرض.. مد خطواته ليتجه صوب الباب.. ضربه بعنف، حتى اشرأبت الأعناق من البيوت المجاورة للطرق العنيفة، شبابيكها مزدحمة بنساء وأطفال يتبعون المنظر ولا يجرؤون على الخروج..

هذه كانت توصية السيد لهم قبل أن يترك المكان.. كان يعلم بأن يد الدولة ستطوله يوماً.

رحل السيد.. تصحبه عنابة الله وآل بيته الرسول.. هكذا كانوا يتممون من وراء ضلعة الشباك.. يتممون بهمسات خائفة وقلقة.. وعيونهم لا تكاد تفارق مشهد الضابط الثائر.

لم يجرؤ أحد على فتح الباب ومنع -جودت بييك- من محاولة اقتحام البيت.. وعندما رأى الضابط بأن أحداً لا يستجيب لطرق الباب.. رجع إلى الوراء وبدأ بركل الباب الخشبي القديم.. لم يفلح في كسر الباب فاستعان بمسدسه ليطلق رصاصة صوب أكرة الباب كانت كفيلة لفض قفل الباب وفتحه على مصراعيه.

عندما دخل الدار... كان السكون يُغلفها إلا من صرير الهواء الذي يمر عبر المرات في الداخل.. كانت كالمهجورة يسيطر على الداخل إليها الرعب.. مكانٌ بات موحشاً للغاية.. مسكنة تصر صر فيها الريح عبر النوفذ السوداء.. كأنّها تحرسها أرواح الموتى.. الظلام النسبي كان يضيق على الدار رهبة على رهبة تكاد تسيطر على مفاصل الضابط رغم شجاعته التي ولّت الآن.. أصدرت الأبواب الخشبية طقطقات خفيفة وكانتها تصرخ من الوحشة وت بكى صاحبها الذي غادرها.. الأرواح التي تسكن الدار بدأت تستيقظ غير مُرحة بالزائر.. تُثبت القشعريرة في نفسه وتسخر منه تارة وتنتحب حُزناً تارة.. وكان الحيطان بدأت تتكلم

وَتَثُور.. بَلْ كُلَّ مِفَاصِلِ الْبَيْتِ بَدَأَتْ تَسْتَنِكُرْ وَجُودُ الشَّخْصِ الْعَدُو..
تَمَشَّتْ الْهَمَمَاتِ فِي فَرَاغِ الْبَيْتِ.. فَأَشْبَاحُهَا بَدَأَتْ تَهْمِمُ بِكَلِمَاتِ مِبْهَمَةٍ
تَصْدَعُ لَهَا رَأْسٌ - جُودَتْ بَيْكِ.. انتفَحَتْ عَرْوَقَهُ وَكَانَ أَيَادِي خَفْفَيَةٍ
تَعاَوَنَتْ عَلَى نَفْخَهَا.. انتفَحَتْ عَرْوَقَ الْوَجْهِ فَجَأًةً وَتَلَاهَا الرَّقْبَةُ وَالْعَيْنَيْنِ
وَأَنْذَرَتْ بِانْفَجَارِ مَرْيِعٍ.. حَتَّى انبَثَقَ الدَّمُ مِنْ أَذْنِيهِ وَعَيْنِيهِ.. وَكُلُّمَا تَأْذَى
الضَّابْطُ، زَادَتْ حَدَّةُ الْهَمَمَاتِ، أَنْذَرَتْ الْمَجْنِي عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ الْمُحْتَمِ.. لَا
رَحْمَةٌ فِي قَوْانِينِهِمْ مِنْ يَلْجِهَا إِمَّا أَنْ يَكُونُوا مَعَهُ أَوْ عَلَيْهِ.

إِنْ كَانُوا مَعَهُ أَسْعَدُوهُ وَأَضَافُوا لَحْيَاتِهِ سَعَادَةَ الدُّنْيَا الَّتِي يَتَمَنَّاهَا.. وَإِذَا
نَقْمُوا عَلَيْهِ حَلَّتْ عَلَيْهِ لَعْنَةُ مَا بَعْدِهَا مِنْ لَعْنَةِ.

تَزَايَدَتْ هَمَمَاتِهِمْ حَتَّى بَدَأَ جَسَدَهُ الْهَالَكَ يَرْتَجُ وَالدَّمَاءُ لَا تَتَوقَّفُ عَنِ
الْتَدْفُقِ بِغَزَّارَةٍ حَتَّى طَاحَ بِثَقْلِهِ عَلَى الْأَرْضِ.. وَلَمْ يَعْدْ ذَلِكَ الشَّابُ الْقَوِيُّ
قَوِيًّا وَلَا وَسِيَّمًا.. وَلَمْ تَسْكُتْ الْهَمَمَاتِ حَتَّى تَوَقَّفَ الْجَسَدُ عَنِ الْإِرْتَاعَشِ
وَكَانَهُ شَاهَةً أَفْرَغَتِ الدَّمَاءَ مِنْ جَوْفِهِ.. سَادَ صَمْتٌ فَجَأًةً.. وَتَوَقَّفَتِ
الرِّيَاحُ عَنِ الْصَّرِيرِ.

سَكَتَ كُلُّ شَيْءٍ.. وَبَدَأَتْ أَصْوَاتُ أَقْدَامِ السَّاكِنَيْنِ بِالْجُوارِ بِالْاقْتِرَابِ
شَيْئًا فَشَيْئًا.. حَتَّى تَجْمَهُرُوا عَلَى جَثْثَهِ الْهَامِدَةِ عَلَى الْأَرْضِ.. غَارِقًا فِي
دَمَائِهِ.. وَاقْفَيْنِ صَامِتَيْنِ، وَلَا تَعْلُو وَجْوَهُهُمْ سَوْيًا دَهْشَةً عَظِيمَةً.

-60-

أيلول ١٩٣٣ - العاصمة السويسرية « برن »

وصل الملك فيصل الأول إلى العاصمة السويسرية « برن » طلباً للاستشفاء.. حيث كان التعب بادياً عليه.. شاحب الوجه، منهك القوة.. نزل في فندق "Bellevue" الفخم الذي يطل على بحر « الآر »..

وبالرغم من وضعه الصحي الحرج إلا أنه طلب أن يقابل الصحفيين، حيث كان يريد توضيح حقائق عن قمع ثورة الآشوريين على يد « بكر صدقي ».

قلق ومنفعل، ولم تخُلُ تصريحاته من شدة اللهجة، وضرب اليد بقوّة على الطاولة أثناء اشتداد انفعاله وهو يدلّي بالتصريحات للصحفيين.. وحينها كان الملك قد تلقى سيلًا من التهديدات من قبل الحكومة البريطانية بسبب قمع الحكومة العراقية للثورة الآشورية.

قضى الملك 3 أيام من التعب والإرهاق الذي تزايد عليه، وتردّت حالته الصحية.. وفي 7 أيلول وعندما أصيب الملك بآلام حادة في بطنه، حضر على عجل طبيبه الخاص وحقنَه بحقنة تحت الجلد، فأحسَّ الملك بنوع من الراحة، وتدهورت صحته بعد منتصف الليل.

كان «نوري السعيد» و «رستم حيدر» و «تحسين قدرى» حاضرين
ويشهدون الملك وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وقال آخر ما قال:

- أنا مرتاح لقد قمت بواجبي وخدمت الأمة بكل قواي، ليسير الشعب
بعدي بقوة واتحاد.

«ثم شهق شهقته الأخيرة».

وثارت الشكوك عندما ذكر التقرير الطبى أن سبب الوفاة ناجم عن
انسداد الشرايين الذى يسبب آلامًا شديدة في الصدر، بينما الملك كان
يُعاني ليلتها من آلام شديدة في البطن.

في أيلول 1933: تم تتویج الملك غازي ملکاً على العراق بصفته ولیاً
للعهد رغم محاولات نوري السعيد إقناع رئيس الوزراء «رشيد عالي
الكيلاني» باستبعاد الأمير غازي لأنّه متخلّف عقلياً «حسب ادعائه» ولا
يصلح لتولي الملك، ودعوة الأمير «زيد» لتولي الملك.

بعد شهور من وصوله إلى إيران.. اغتبط السيد لوفاة الملك ولكن تولي الملك غازي الحكم أثار ضغبيته وأجل رجوعه الذي كان يحلم به.. في حين كانت المرجعيات تهیئ له مقومات الزعامة، ولم ينthem الشاه وعداؤه لرجال الدين عن السير قدماً لتحقيق مخططهم.. فتحرّك السيد سامي لنشر مبادئه الجديدة بين الناس وتصدير ظاهرة عدم الاستقرار إلى العراق.

* * * * *

يبينها يبعثون الناس إلى النجف.. والاستمرار بتسريب الدّس السياسي إلى بغداد تحت غطاء الدين، حتى انفجر العصيان ضد الحكومة مرة أخرى أرجعت الأوضاع إلى ما قبل ثورة 1920.. واستمروا بتحدي الحكومة حتى اصطدموا بالجيش الذي يقوده «بكر صدقي» بالشيخ «خوام» فقضى على الحركة التي يتزعّمها بسهولة.

أما السيد سامي فحاصره تهديد جماعات وأنصار السيد الحسيني الذين شَكُّوا بمقتله وضلّوا السيد في الجريمة.. ولم يكن بدوره مهمّاً لذلك اهراء كما كان يسميه.. بل بلغ الغرور به أن يرفض التفاوض مع أنصار الحسيني والبدء بالنيل منهم بالبطش والغدر بهم.

كان الوقت بعد منتصف الليل عندما عاد إلى الدار من سهرته المعتادة مع بعض الشخصيات.. دخل حجرته وألقى عبأته على الكرسي فوقف قليلاً يتأمل في الظلام.. وكأنه يردد صلاة صامتة.. لم يتبيه بأن شبحاً يحمل خنجرًا يختبئ خلف الستار.. قبل أن يتحرك نحو السيد خطًّا يده على فمه وشدّ رأسه إلى الوراء ووضع باليد الأخرى الخنجر على قصبه الهوائية.. كان يطلق سبةً في أذنه.. قبل أن يذوب النصل في رقبة السيد ويخرج على الأرض وتتحرّك رقبته.. كان القاتل لا يزال قابضًا بيمناه بإحكام على الخنجر المصقول بالدم وببلاده أحذ يردد:

ـ سيد!.. يا قذر.

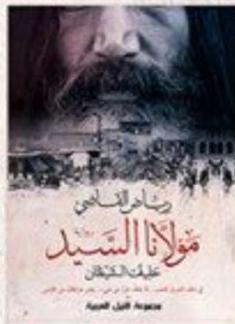
كان القاتل يتفسّس بسرعة ويرتجف قبل أن ينسّل من الشباك المفتوح ظلّ كلب أسود.. التقطت أذناه الدمدمة الخفيضة للغاية الأذني من ز مجرة.. كتهديد هامس.. لا يكاد يسمع.. حتى وثب الكلب الشبح ليطبق بفكّيه على عنقه مقتلعاً نصف حلق القاتل.. فاختفت صرخات الرجل وتناثرت دماءه على الجدران كالمطر الدافئ.. تألّقت عينا الكلب في الحجرة المظلمة بفكّين أحمرین مبتلين قبل أن يثبت من الشباك إلى حيث أتى..

تاركاً رجلين مخضبين بالدماء على الأرض.

تجدون المؤلفات الكاملة للروائي رياض القاضي على أمازون

"RIYAD AL KADI'S" BOOKS ON AMZON

- الصرخة «سموم وادي الأفاغي» / رواية
- نسرین أبجدية العشق / ديوان شعر
- نسرین / خواطر
- نسرین / مجموعة قصصية
- الحريق والرماد / ديوان شعر
- حواء / خواطر
- عصر النساء / خواطر
- قارئة الفنجان / خواطر
- كهرمانة الغزاة / خواطر
- من يوميات رجل حزين / خواطر
- قصائد ثائرة / شعر
- نساء على كف الرب / شعر
- أبجدية الحب / ديوان شعر
- نسرينات / ديوان شعر
- إسطنبول / خواطر
- اعترافات الحب / خواطر
- المجزرة / خواطر وأشعار
- الوهم / خواطر
- بغداد / ديوان شعر وخواطر
- تأملات / خواطر



يراوده إحساس بأن الأرواح تحب النار.. حينما طغى
لون الأدهم كالعقيق الأسود وبات يكتسح جدران
المغارة .. ظلال تتواثب وتترافق على الجدار من
ورائه .. تارة بأنباب كالخناجر طويلة مقوسة وساعية
تتمثل في قط أسود تتوهج عيناه في ضوء الشموع ..

فنون
Cover by *shihab-art*

Arab Nile Group

P.O. Box: 4051, 7th District
Nasr City 11727 Cairo / Egypt
Tel.: 00202/26717135 – 26717134
Fax: 00202/26717135
info@arabnilegroup.com
arab_nile_group@hotmail.com
www.arabnilegroup.com

ISBN:978-977-377-213-0

9 789773 772130